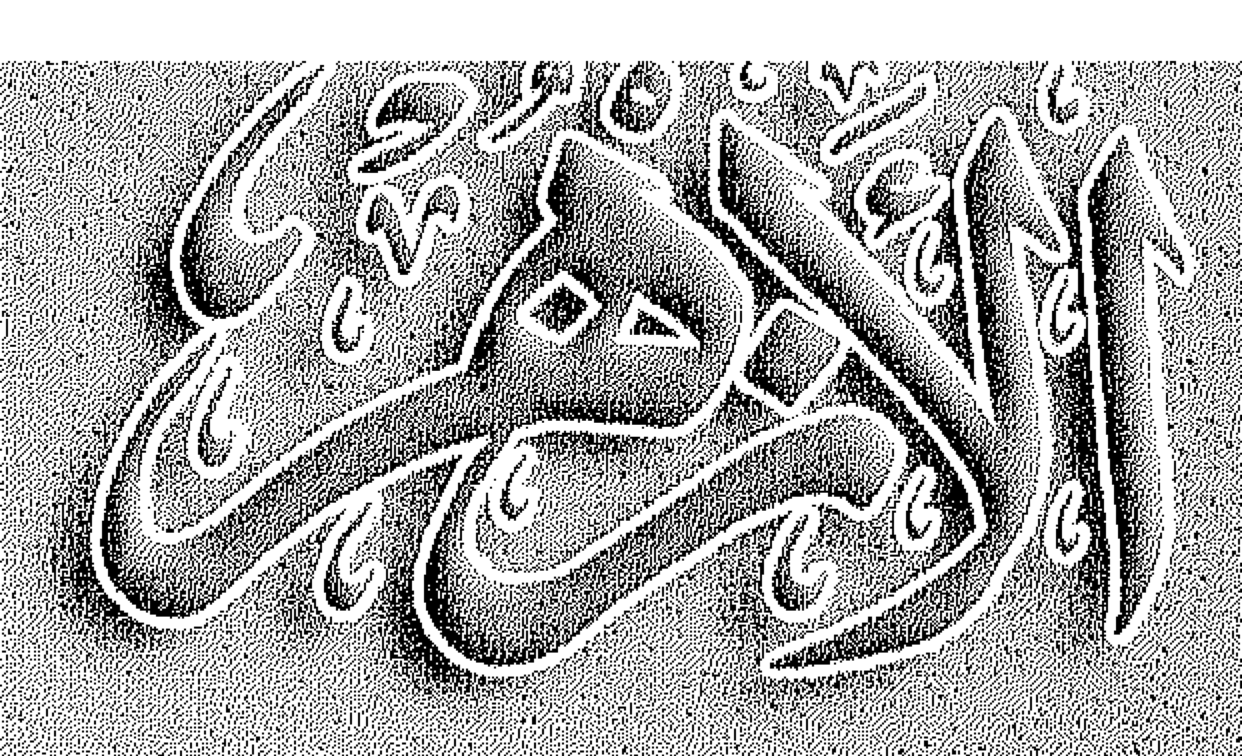


الخطر النووى

فى مرآة عالم أزهرى

تأليف

الشيخ / محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

هدية مجلة الأزهر لشهر ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ

الخطر النووى
فى مرآة عالم أزهرى

تأليـــف

فضيلة الشيخ/ محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

الشيخ محمد أحمد عرفة
ناقد تعدّدت صولاته، واتّسعت ميادينه

مقدمة للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى

- ١ -

هو ناقد، بل فارس تعدّدت صولاته، واتّسعت ميادينه، لا أقول ذلك اقتناصاً لصورة بلاغية تزيّن التعبير، بل أقوله تعبيراً عن حقيقة واقعية، يجب أن تكون ذائعة مُشتهرة بين الدارسين لأن تاريخ المعارك الفكرية لدينا فى حاجه إلى تسجيل شامل مطمئن يحفظ حقوق قوم أدّوا كرامة العلم نقاشاً ونقداً وتجريحاً وتعديلاً ثم مضوا عن هذه الحياة فى صمت لاذع، حيث تجوهلت أقدارهم وتُنوسيت فضائلهم، لأنهم لم يصطنعوا طُبُولاً تدقّ من ورائهم لتقدم جزاء ما سلف إليها مُحاباة.

فما أكثر هؤلاء الذين يتجاهلون ذوى الفضل، لا لشيء إلاّ لأنهم كانوا يسيرون على الصراط القويم، وما أكثر هؤلاء الذين يدقّون الطبول لذوى الشُّهرة العريضة، لا لشيء سوى أنهم كانوا بعض ذيولهم المندفعة وراءهم في كل اتجاه، وإلاّ فكيف تفسّر سكوت الأقلام عن فرسان كبار من ذوى المعارك الفكرية، أمثال: أحمد زكى باشا، ومحمد أحمد عَرفَة، ومحمد لطفى جمعة، ومحمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدى، ومحمد أحمد الغمراوى، وقد تركوا من الآثار الناهضة ما يشهد لهم بالفضل الكبير، ثم اتجاهها إلى ترداد الذائع المتعالم عن المشاهير، دون إضافة سطر واحد إلى هذا الذائع المتعالم، إلا أن يكون الحق قد عدم أنصاره، وللحق صمت محدود الزمن، ولكنه لابد أن ينطق بأبلغ لسان حين تحين الساعة، وينتبه الراقدون.

انتسب الطالب محمد أحمد عرفة للأزهر عقب وفاة الإمام محمد عبده، وقد فاضت الصُّحف في تعداد مآثره، فلفتت ذهنه إلى مثالٍ نادر من العلماء الذين يحملون أمانة القلم هدياً وإصلاحاً، ثم وقع في يده كتاب «نهج البلاغة» بشرح الأستاذ الإمام، فأقبل على حفظ روائع علىّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ

مشروحة بقلم الإمام المُصلح، وكان الأزهر حينئذٍ يكتفي بكتب العلم عن كتب الأدب، فمَّن اقتصر من طلاَّبه على متونه وحواشيه فقد قبع في زاوية ضيقة، ومَن أرشدته تعاليم الإمام إلى كتب التراث بعامّة فقد نظر إلى الدنيا ببصر ثاقب.

لذلك كان محمد عرفة من الفريق الثانى، الذى جمع بين الاتجاهين فى عهد الطلب، وكان للجرائد على عهده كتاب كبار، من أمثال: المنفلوطي، والمويلحى، والبرقوقى، وعلى يوسف، وعبدالكريم سليمان، ومحمد شاكر، وكلهم أزهريون يحملون أمانة الكلمة، ويمهّدون الطريق لجيلٍ لاحق من العلماء، يخرج عن نِطاق الشروح والمتون إلى معالجة شئون الساعة وأحداث العصر، فجذبوا أقلام الناشئة من الأزهريين إلى ميدان الكتابة الصحفية، وفسحوا المجال لأسماء مؤمنة مستنيرة، أخذت تشرق فى الصُّحُف اليومية مُرشِدة هادية، ومُناقشة ناقدة.

ومن هذه الطليعة الناهضة أسماء: محمود أبو العيون، وعلى سرور الزنكلونى، وعبدالباقى سرور نعيم، ومحمود شلتوت، ومحمد سليمان، وعبدالمتعال الصعيدى، ومحمد أحمد عرفة الذى نخصّه بدراسة

اليوم مُنصِفِين غير متزيدين.

ولم يكد عرفة يفرغ من دراسته الأزهرية، وينتقل إلى التدريس بعد تفوّقه في امتحان العالمية، حتى شغلت الجرائد بقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ الخاصّ بالأحوال الشخصية، حيث رأى المشرّع أن يعدل عن قانون ٢١ لسنة ١٩١٠ الذى نصّ على وجوب العمل بالراجح من مذهب أبى حنيفة، وبمذهب أبى يوسف فى مقدار المهر ومسائل أخرى، إذ رأى واضعو القانون الأخير أن تتّسع دائرة الأخذ من أحكام الأئمة، لتُجيز للقاضى أن يحكم بغير مذهبه، وبالضعيف منه إذا رُوعِيتَ المصلحة.

وهى مناسبة فسيحة لانطلاق الأفكار المجدّدة فى محيط التشريع الإسلامي، وقد دفعت بالشيخ محمد عرفة إلى كتابة سلسلة من البحوث الفقهية، فكان أول مَن أوجب إعادة النظر فى الطلاق المعلّق، وطلاق الغضبان والمكره، وطلاق ثلاثة الأيمان بلفظ واحد.

وأخذ ينتقى من نصوص السابقين ما يؤيّد مَنحاه، ويفسّر الآيات والأحاديث تفسيراً يتّجه لليُسْر، لا إلى التشديد الصعب، ولم يشأ أن يمهر مقالاته باسمه الصريح، بل رمز إليه بحرفى (م. ع) كيلا تكون حداثته

العلمية مانعة دون النظر في آرائه، وقد كانت آراؤه مصدر نقاش متصل بين المُشَرّعين الكبار، وقد جعلوا يتساءلون في لهفة عن صاحبها، مُقَدّرين أنه من ذوى المناصب العالية في الأزهر والمحاكم الشرعية، حتى تسنّى لهم أن يهتدوا إليه بعد أن تمخّض الجدل عن حقائق جديدة، وجدت طريقها إلى بعض العقول، ونحن إذا رجعنا إلى ما كتبه الشيخ المراغى من بحوث تالية تمخّضت عن قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩، نجد أن كل ما جاء به الأستاذ عَرَفة قد وافق تفكير الإمام المراغى، ولا ندّعى أن الرجل الكبير قد سَطَا على أقواله، بل نقول: إن الإخلاص للحقيقة قد صادف توافقاً بين الشيخين.

وقد زاد المراغى زيادة ممتازة حين كتب مذكّرته التفسيرية لقانون رقم ٢٥، فبدأها بفصول جيّدة عن التشريع، تتحدّث عن مسائل قوية من قضايا علم الأصول، إذ فسّر معنى الاجتهاد، ووازن بين المجتهد المطلق، والمجتهد المقيد، وحدّد المراد بلفظى التجديد والتقليد، وأكد ضرورة الرجوع إلى غير أصحاب المذاهب الأربعة المشتهرة.

كما تحدّث عن قضاء القاضى بغير مذهبه حيناً، وبالضعيف المرجوح منه حيناً آخر، وأفاض فى تغيير

الأحكام بتغيّر الزمان والمكان والعُرْف، حتى إذا فرغ من ذلك كله فى إشباع وإقناع أخذ يعرض مواد القانون الجديد فى هدى ما قدم من قواعد ونقول، عن الأئمة الكبار.

وقد تحدّث الشيخ عرفة عن صنيعه هذا فقال فى وضوح عن أبحاثه تلك: «لقد أثارت بعض المُحافظين فردّوا عليها، ولكنها كانت حجراً أُلقِىَ فى الماء الراكد، فنبّهت الأذهان، وفعلت فعلها حتى صدر قانون المحاكم الشرعية بعد ذلك مُطابقاً لكل ما اقترحته، فإن كان ذلك قد حفظ الأسرة المصرية من التداعى والانهيار، وحفظ الأبناء من الشتات والضياع، فعند الله احتسب ما صنعت، وادّخر ما قدّمت» [1].

رشحت هذه الدراسات الفقهية صاحبها ليكون استاذاً بكلّية الشريعة الإسلامية عقب إنشائها، فوكيلاً لها، فأتيح له المجال كى ينهض بدراسة الأحكام الفقهية فى جو ارحب، ومع عقول لا ينقصها الاستعداد.

وقد راس جماعة من زملائه ليعملوا بتوجيهه على كتابة مؤلّف يشمل آيات الأحكام القرآنية فى أجزاء

---

(١) عن الجزء الثالث من كتاب (الأزهر فى ألف عام)، ص ١٠٧، نقلاً عن مقال نشره الأستاذ محمد عرفة بجريدة المصرى، (يونيه، سنة ١٩٥٢م).

أربعة، يختصّ كل جزء بعام دراسى من أعوام الكلية.

وآيات الأحكام القرآنية قد وجدت مَن يهتم بها من السابقين، ولكن على نحوٍ مذهبى محدود، فتفسير آيات الأحكام الذى كتبه الجصاص يتجه وجهة الأحناف، وتفسير آيات الأحكام الذى كتبه ألكيا الهراس يتّجه وجهة الشافعية، وتفسير آيات الأحكام الذى كتبه ابن العربى يتّجه وجهة المالكية، للأخير قسوة مُفرطة حين يتناول الرأى المُخالف، وكأنه يناقش خصوماً لا أئمة يتّجهون معه نحو هدف واحد.

فرأى الأستاذ عرفة أن يكون تفسيره لآيات الأحكام شاملاً وجهات متعددة بحيث لا يقف عند المذاهب فى بعض ما يتّجه إليه إذا كانت الحاجة مُلزِمة إلى فضاء أوسع.

وأضرب لذلك بما كتبه فى آيات الوصيّة، حيث رأى أن يكون الوارث بعض مَن يختصّ بالوصية إذا دَعَت ضرورة إنسانية لتفضيلة، وجمع من النصوص ما يؤيّد منحاه، وأزال من بعضها ما يُشَمّ منه رائحة التعارض بالتأويل والتخريج، ودراسة الأحكام القرآنية فى هذا الأفق العالى ذات نور يوحى بالهداية، إذ هى خطوة متّسعة لشمول الشريعة، وإيفائها بمتطلبات

الحياة على وجه لا تعوقه الأسداد.

وإذا كنّا قد بدانا بالناحية التشريعية من جهاد الرجل الفاضل فلن نغفل نقداته الأصولية الكبيرة لدائرة المعارف الإسلامية، حين همّ بترجمتها إلى العربية نفر من الشباب الجادّ، فقد قرأ الأستاذ أجزاء المجلد الأول في اهتمام، ووجد في بعض المواد ما أخطأ سبيله عن عمد قاصد، فشرع ينشر في الصُّحف والمجلات تصويباته الفقهية والتاريخية، وينادى بوجوب التعليق على المواد العلمية في الحواشى، حين يكون المكتوب خطأ منحرفا عن الصواب.

وقد استجاب القائمون على أمر الدائرة لاقتراحه، فأخذنا نقرأ نقود الأعلام من الدارسين لما يُقال على غير وجهه، ومن أبرز ما جلى فيه الكاتب ما نشره خاصاً بمادة (الإجماع) الأصولية، إذ خبط كاتب هذه المادة خبطا عشوائياً في موضوع أصولى دقيق لا ينهض به غير فقيه راسخ، فزعم أن الإجماع قد ينقص ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله، وأنه قد حدث بالفعل في تاريخ الفقه الإسلامي، وادّعى أن للمسلمين أن يحملوا فيهم ما يشاؤون من الآراء المستحدثة إذا وافقوا عليها مهما كانت مُخالفة للنص الصريح، فيكون في مقدور أئمتهم

أن يلحقوا بالشرع الإسلامي ما ليس فيه، وكأنهم غير مسلمين إذ لا يتقيدون بنص من كتاب أو حديث!!

ثم يستدلّ كاتب المادة بالإجماع الدّالّ على التوسّل بالأولياء، حيث صار أمراً جديداً أُضيف إلى الدين، وهو استدلال فاسد، إذ لا إجماع على التوسّل كما زعم، وإنما هو خبط يتعمّده مستشرق غير متخصّص، واظهر هذه الآراء خطورة ما ادّعاه من امتداد الإجماع إلى دائرة العقائد فيما يُعرَف بعلم التوحيد، مع أن الإجماع في علم الأصول خاص بالفروع العلمية في أحكامها الفقهية.

ولسنا نريد أن نناقش هذه الآراء فننقل عن الأستاذ عرفة ما نسفها به من حق صريح، ولكننا نشير إلى مكان الردّ في المجلد الخامس من مجلة الأزهر ص ٥٦٠ وما بعدها، كما تضمن هذا المجلد نقاشاً آخر حول الحج في الإسلام، إذ جاءت أحكامه في الدائرة مشوّهة تتطلّب التصحيح، كما تضمّن المجلّد فصلاً رائعاً عن تصحيح ما قيل في الدائرة عن أبي هريرة - رضي الله عنه!

وأنا أعجب للذين يُفردون الكتب في ثلب هذا الصحابي الجليل، متّخذين من بذور دائرة المعارف

سموماً قاتلة للبحث العلمى النزيه! أعجب لهؤلاء كيف سكتوا عن نقاش الأستاذ عرفة لما كتب، إذ أبطل الباطل فى منطق صريح، وإذا كانوا لم يقتنعوا به فلِمَ لم يردّوا عليه؟ ولمَ اعتمدوا على السّموم القاتلة التى تصيّدها المستشرقون من الأخبار الضعيفة والروايات المكذوبة وحدها!! وكان لهم غرضاً حقيقاً فى إلباس الباطل زىّ الحق، حيث يُظهِرونه خالياً من نقود الفاقهين، وكأنه صحيح لا لَبْس فيه! وأذكر أن القائمين على نشر الدائرة قد انتفعوا بكثيرٍ من آراء الشيخ حين انتدبوه إلى كتابة تعليقات مصحّحة فيما جدّ من أجزاء الدائرة، فأبلى مع غيره من كبار المعقّبين أحسن البلاء.

وحين انتشر بلاء التبشير فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن، نشط الأزهر إلى تأليف لجنة من كبار العلماء، للدفاع عن الإسلام، بكتابة أبواب هادفة فى كتب موجزة، تتحدّث عن أصول الإسلام ومحاسنه، فكتب الكبار من أمثال الشيوخ: يوسف الدجوى، وإبراهيم الجبالى، ومحمد الخضر حسين فصولاً هادية وُزِّعت على الناس، وتُرجِم أكثرها إلى مختلف اللغات.

وقد قام الأستاذ محمد أحمد عرفة بواجبه حين ألّف رسالته الموجزة تَحت عنوان: (السرّ فى انتشار الإسلام)

فأوضح أن انتشار الإسلام يرجع إلى أمرين: يرجع إلى أصوله الأخلاقية فى الهداية والتشريع، وإلى سلوك الداعى إليه، واتّباعه المثل الأعلى فى الحياة، وهو إجمالٌ قام المؤلّف بتفصيله حين أوضح رسالة الحق والخير والجمال فى الإسلام، وعلى وجه صريح تسنده النصوص والوثائق، وقد ترك الأقوال الصريحة من كتاب الله تنطق بما يجلو الصواب، وفى مجال الحديث عن رسول الله أتى بفضائله الذاتية كما اشتهرت عنه من حلم وعفو وتسامح وتواضع وصبر وكرم مُفرط وهى صفات تجد دليلها الملموس من الواقع المتواتر، ثم تحدّث عمّا زعمه الزاعمون من انتشار الإسلام بالسيف فأبطله بالحق الملزم، ورأى فى أحداث التاريخ أيام الفتوح من سلوك أبى بكر وعمر وأبى عبيد، وعمرو بن العاص، ما نصر الحق على يده، وقد ترجم ما كتبه الأستاذ إلى لغات مختلفة فعاد بخير كثير.

أما كتاب (نقض مطاعن فى القرآن الكريم) فقد ردّ به الأستاذ عرفة على محاضرات قرآنية ألقاها الدكتور طه حسين بكلية الآداب، تشبع فيها بما كتبه المستشرق «كازانوفا» عن القسم المكّى فى القرآن، وقصر سوره وخلوّها فى زعمه من المنطق والنقاش، على عكس ما

يرى فى القسم المدنى، إذ كانت سوره مُسهبة ذات حوار وعقل! كما تورّط الدكتور فى الحديث عن لفظة قرآن بما لا ينتمى للحق، وعن أوائل بعض السور المبدوءة بالحروف أمثال: ق. ص، يس، حم، وكلّ ذلك كان يتطلب الردّ الملجم، وهو ما نهض به الأستاذ عن اقتدار ويقظه وعمق.

ولن نخالف الواقع حين نقول: إن الدكتور طه حسين قد ترك هذه الآراء الهابطة معتقداً بُطلانها، لأن ما جاء فى كتابه الرائع (فى مرآة الإسلام) عن القرآن الكريم، يعصف بهذه الأكاذيب، حسبنا منه أنه تراجع عن شططه، حين صحب كهولته المطمئنة بعيداً عن تسرّع الشباب، وليس يجوز لنا الآن أن نُسرف فى تعداد هذه السّقطات التى أسقطها من حسابه فلم يجمعها فى كتاب منشور، وإن أساء بإلقائها على الطلاب.

وقد وقف الدكتور عبدالحميد سعيد - رحمه الله - منه موقف الكرامة حين ندّد بأراجيفة الظالمة فى مجلس النوّاب، ودعا إلى التزام الحق حول كتاب الله! وفيمَن كتبوا تاريخ الدكتور طه مَن ينتقصون صنيع الدكتور عبدالحميد سعيد ويعدّونه ممثّلاً للرجعية! هكذا قالوا فى أكثر من كتاب!! وهؤلاء أذناب تتحرك تابعة مُسخرة

دون استقلال، إذ كيف يخطىء أستاذ فى كتاب الله خطأ شديد العوار، فإذا قام مَن يحتجّ على خطئه الفادح عُدّ رجعياً متخلّفاً!! إلاّ أن نكون فى هذا النظر قد تركنا الإسلام جانباً لنتزلّف للمبشّرين لأننا ذيول.

وإذا كنّا قد سكتنا عن ردّ الأستاذ على هذه الافتراءات بعد أن تراجع عنها صاحبها، فلن نسكت عن إبداعه الرائع فى كتابه الجادّ، حين تحدّث عن السياسة الإلحادية فى التعليم، فبيّن أن الذين ينشرون الإلحاد فى صفوف الناشئة وبين جماعات الأمة قد تعلموا تعليماً ناقصاً، فلا هم مع العامّة فى جهلهم الطبيعى، ولا مع الخاصّة فى تغلغلهم العاصم من الخطأ، ولو فهموا العلم حقّ فهمه لآمنوا إيمان العلماء، ممّن رأوا قدرة الله واضحة فيما درسوه من مظاهر الكون ومشاهد الطبيعة، ونحن نعرف أن بعض الذين يتمسكون بحرية النقد الأدبى، لا يمضون مع الحرية فى وجهها الصحيح، لأن أساس هذه الحرية أن تكون مستقلاً لا تابعاً وما جاء الدين مُعارضاً للعلم فى شىء من حقائقه لدى الأصلاء الفاقهين، ولكن الذين يتصيّدون الشُّبُهات هم الذين يحتاجون إلى التؤدة والتثبّت ليعلموا أن النقد نظر جاد هادِف، وليس وثباً

خاطفاً فى الطريق، هذا بعض ما أفاض فيه المؤلف عن أصالة وإبداع، فقدم المثل على شجاعة الخلق، وأمانة العلم، واستقامة الدليل.

- ٢ -

قلت: إن الأستاذ محمد عرفة ناقد تعدّدت صولاته، واتّسعت ميادينه، وقد آن لنا أن نترك ميدان التشريع والأصوال إلى ميدان البلاغة واللغة والنحو، مما يُعرَف بالعلوم اللسانية، إذ أن نضال الشيخ فى ساحاتها العريضة قد أثمر أطيب الثمر، حيث قُدِّر له أن يترك كلية الشريعة الإسلامية إلى كلية اللغة العربية، ليتداول تدريس علوم مختلفة بها فيتفوّق على المشاهير!

وإنى لأعجب كلّ العجب حين أجد الكليّات المتخصّصة الآن لا تستطيع أن تُخرّج عالماً كبيراً فى ميدان دراستها إلاّ بجهدٍ جاهد، وعلى ندرة نادرة تجعله فى مكان الشذوذ، أما الأستاذ محمد عرفة، ومحمد الخضر حسين، ومحمد على النجار، فقد تعلّموا تعليماً عاماً غير متخصّص، بحيث كانت علوم

الشريعة، وعلوم اللغة، وعلوم العقائد، تُلقى عليهم فى مستوى واحد، ثم تجد الواحد منهم يكتب فى كل علم وكأنه أفرغ له حياته العلمية، بحيث لا تتّسع لسواه.

ها نحن أولاء نرى الأستاذ عرفة يتّجه إلى كلية اللغة، فيدرس الفلسفة ويبرع فى مسائلها، ثم يختار فى تخصّص الأستاذية لتدريس الأدب والبلاغة، فيفرض على الطلاب دراسة مستوعبة لكتب التراث النقدى، لم تكن مما درسه الأزهر من قبل، إذ يتخصّص كل طالب فى دراسة أمثال: قُدامة، وأبى هلال، وابن طباطبا، وابن سنان الخفاجي، والباقلانى، والآمدى، والجرجانى قرابة عام، ليعدّ بحثاً مبدئياً يتعهّده الشيخ فى كل خطوة من خطوات تكوينه، حتى إذا استوى على سوقه شذّبه وهذّبه، ودفع به إلى مجلة الأزهر ليُنشَر على حلقات.

وقد كان الأزهر منذ عهد الإمام محمد عبده يبدأ زمنياً بكتب المدرسة السكاكية، فيدرس فى البلاغة آثار السعد التفتازانى، والسيد الجرجانى، والخطيب القزوينى، وما يدور حولها من الحواشى والشروح، حتى يرتقى فى السنوات الخاتمة إلى كتابى عبدالقاهر الجرجانى، وعندهما يقف، فجاء الشيخ عرفة وارتفع

بالسلسلة إلى عهد الجاحظ صاحب أول كتاب فى البيان والتبيين، فإذا أضفنا إلى ذلك بحوثه البلاغية التى نشرها بإمضاء (م. ع) فى مجلة الأزهر عن التجريد والتشبيه، والذكر والحذف، بالمجلد الرابع والعشرين لسنة ١٩٥٢م، عرفنا كيف قام الرجل بنصيبه الأوفى فى هذا المجال.

فإذا كان الحديث عن النحو والنّحاة، فلن يُنكَر مكان الأستاذ لدى الدارسين، إذ كان أحد قطبى معركة إحياء النحو، يوم أن ألّف الأستاذ الكبير إبراهيم مصطفى كتابه التجديدى ودفع به إلى الدارسين، فكان أول صوت رنّان مُعاصر ارتفع بصَيحة الابتكار النحوى.

وواضح أننا لن نبخس الناس أشياءهم، حين نجدهم يعكفون على البحث الخالص، ليخرجوا بنتائج جديدة، مهما كانت تجد المخالف، فحسب الأستاذ إبراهيم مصطفى أنه ترهّب فى دير النحو سبع سنوات، ليبرز كتابه للناس، والذين يقرؤون كتب النحاة منذ سيبويه إلى عهد الأستاذ، يعرفون أنه كان يشقّ طريقه فى الصخر مع كتب دقيقة، تستخدم الفلسفة والمنطق فى التعبير، لتمضى بالقارىء إلى أدغال مرهوبة ذات أساد ونمور.

وقد كان الأستاذ محمد عرفة على سطوته العلمية فى الردّ، يعرف لصاحبه ما لاقاه فى نضاله من أهوال، إذ خاض ما خاض من أمواج، وقد ألمح إلى ذلك فى طيّات كتابه، حين عارضه فى مسألة التنوين، وكونه علامة للتنكير فى رأى الأستاذ إبراهيم مصطفى، فقال الأستاذ عرفة ص ٢٣١ من كتاب «النحو والنحاة» :

«أما مؤلّف الكتاب فلم يشأ أن يرفض أن التنوين علم التنكير، ذهب يتلمّس وجوها تجعل ما نُوِّنَ من الأعلام نكرات، وما لم يُنَوّن من الأوصاف والجموع معارف، وفى الحق أنه ركب كل صعب وذلول، والتمس وجوهاً خفيّة، لتطرد له هذه العلامة وتنعكس، وإنى أرى أن الإنصاف يحتّم علىّ أن أعلن إعجابى بهذا الجهد الذى بذله فى العلم، ليُكسِبَ ما نُوِّنَ صفة التنكير.

ثم قال بعد أن نقد رأيه: لذلك نرى من الإنصاف أن نحمد للمؤلّف هذا الجهد، ونرى من الحق أن نرفض ما ذهب إليه، فقد بلغ جهده ومَن بلغ جهده بلغ عذره».

وكيلا يتطوّح بنا القلم إلى منادح رحيبة، نوجز آراء الأستاذ إبراهيم مصطفى التى نقضها الأستاذ محمد عرفة فى هذه الأمور الأربعة، وقد لخّصها الناقد ص ١٤ من كتاب النحو والنحاة:

١- نقد النحويين في قصرهم مباحث النحو على الإعراب والبناء، دون أن يبحثوا خصائص الكلام من تقديم وتاخير، ونفى واستفهام، وإثبات وتوكيد.

٢- الرد على النحاة في زعمهم أن الإعرب أثر لفظى لا معنوى.

٣- نقد النحاة فى زعمهم أن الحركات اجتلبها العامل، وإثبات أن المتكلم هو الذى أحدثها.

٤- إثبات أن التنوين علم التنكير، فلك فى كل علم الأ تنوّنه!

ثم تكفّل كتاب «النحو والنحاة» بالردّ عليها جميعاً بما يعرفه الدارسون، ومَن يتعرّض للموازنة بين الناقد والمنقود، لابدّ أن يكون فى مقامهما النحوى من جهة، وأن يُفرِد مؤلّفاً خاصّاً بهذه الناحية، ليتّسع لكل ما قيل، منْ جهة ثانية، وأين أنا من هذين؟ ولكنى أشير إلى تضلّع الأستاذ عرفة فى فنّه، ووثوبه الظافر فى اجتهاده، وانتحائه منحى المنطق الملزم فى نقاشه، فهو فى حديثه عن العامل يفترض الفروض فى كون الأفعال والحروف والأسماء قد عملت الرفع والنصب والجرّ والجزم فيقول فى تساؤل: لا جائز أن تكون فاعلة بالإرادة، لأننا نعلم أنها لا إرادة لها، إذ لا حياة فيها،

ولا جائز أن تكون فاعلة بالطبيعة، لأن الفاعل بالطبيعة لا يتخلّف أثره، فالنار مهما وُجِدَت أحرقت، وهذه ليست كذلك.

ثم يستمر فى افتراضياته العلمية حتى ينتهى إلى أن النحاة قد أدركوا ما أدرك المؤلّف، ولكنهم جعلوا العامل سبباً فحسب، وله فى ذلك بيان رائع متدفق، فى تسلسل المقرّرات العلمية، وأشدّ روعةً ونصوعاً وتدفّقاً فى تصوير الحيرة العلمية التى تكتنف الباحث فى خطواته الفكرية. وأى تصوير أبلغ من قوله فى تصوير هذه الحيرة :[1]

«ولا يظن ظانّ أن هذه البحوث كانت متسلسلة، وبهذه السرعة التى يشعر بها قارئ هذا الكتاب، كلا، لم يكن الأمر كذلك، فقد كنّا نُبدئ ونُعيد، ونهتدى ونضلّ، ونسير على الجادة أحياناً، ونعتسف أحياناً، وإذا وجدنا شيئا من الضوء مشينا، وإذا أظلم علينا الأمر وقفنا، وربما طال بنا الوقوف، سنين معدودة، وربما بَدَا لنا سراب فخلناه ماء، وفرحنا الفرح كله فلما قربنا منه وتثبتناه بَدَا لنا خداعه، وعادل فرحنا بجلاء

(١) النحو والنحاة، ص ٧٩.

الحقيقة حزننا على فوات المطلوب».

وتلك حالة يعرفها الأصلاء من الباحثين، وهى فى حاجة إلى شاعر مصورّ ليمتدّ بها إلى أفسح ما يستطيع من رصد الخوالج الحائرة بين الأمل واليأس، والخيبة والنجاح.

وقد قال الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى فى تصدير الكتاب، وهو مَن عَناه المؤلّف بقوله عنه (تقديم الكتاب لعَلَم من أعلام العلم والبيان) إذ شاء المراغى ألاّ يُفصِح عن نفسه كيلا يدخل طرفاً رابعاً فى النقاش، كما أجاز الدكتور طه حسين لنفسه أن يكون طرفاً ثالثاً، حيث قال فى تقديم إحياء النحو، إنه كان يراجع الأستاذ إبراهيم مصطفى فى مسائلة، ويتفاهم معه مباحثه، فهو ليس جديداً عنده، قال الأستاذ المراغى[1]

«لم يظهر لى مثال واضح على أن العلوم يسقى بعضها بعضاً، ويُعين بعضها على بعض، كما ظهر لى فى هذا الكتاب، فنحن فى علم العربية، وفى علم النحو خاصّة، فما دخل الفلسفة؟ وإنها لأبعد الأمور غناء فى

---

(١) النحو والنحاة، مقدمة الأستاذ الأكبر. ص٦.

هذا الموضـــوع، ولكن لشــدّ مــا أغنت وأجـدت حـين استوحاها فى مسألة العامل وردّ الاعتراض عليه».

وإذا كان الإمام المراغى قد أشار إلى أثر الفلسفة فى قضـية العـامل النحـوى، فإنى أُشـير إلى أثرها البـارز فيما كتبه المؤلّف عن التنوين، وهل هو عـلامة التنكير؟ كمـا يذهب إلى ذلك الأستـاذ إبراهيم مصطفى، إذ كتب الأستـاذ محـمد عرفة فصلا بديعـاً ممتعاً تحت عنوان (اسـتـخـدام المنطق الاسـتـقـرائى فى تعـريف مـعنى التنوين)[1]، فـذكـر فى مـبـدئه أنه يريد أن يصطحب القارئ فى رحلة فكرية يتـتبّع فيـها مراحل الاستنبـاط ليـعرف مـعنى التنوين، ولأى غـرض يوجـد، وقـد سـار الكاتب فى مراحل البـحث مرحلة مرحلة، فتكلّم تطبيقياً عن مـرحلة الملاحظة فـمـرحلة الفـروض، ثم امـتـحن الفرض بما عنّ له من الملاحظات، واهتدى إلى النتيجة القـائلة بأن التنوين للتـعريف والتنكيـر مـعـاً، وليس للثانى وحده، كما شاء المؤلّف، وتتّبع هذه المراحل كما اطّردت على يَراع الناقد من أبدع ما يمتّع به القارئ فى حلبة الصيال، ولعلّنا ندفع باحثِى اليوم إلى مُعاودة

(١) النحو والنحاة، ص٢٢٦، مطبعة السعادة.

هذه النظرات ليكملوا خطوات الطريق.

وإذا كانت هناك بعض الصعوبات الحقيقية فى تعلّم النحو، فقد وعد الأستاذ عرفة ص ٢٣٥ أن يضع كتاباً مدرسياً لصغار التلاميذ في المدارس والمعاهد، يكشف عن سرّ العربية ويقرّب لغة الضاد من طبيعة المتكلمين، بأسلوب سهل يجد مكانه من الارتياح لدى المدرّسين والطلاب.

ولكن الأستاذ عدل إلى نهج آخر من الإصلاح حين أظهر مؤلّفه الرائع (اللغة العربية ولماذا أخفقنا فى تعليمها) وكان فى أصله الأول مقالات عشر، نُشِرَت تِباعاً بمجلة الرسالة، ولم يقتصر على طبيعة المعالجة لمسائل النحو بل امتدّت إلى فروع اللغة العربية جميعها، حيث دار الحديث في مجال كلّى يرسم النهج العامّ لطبيعة اللغة، وجدوى التدريس فى فروعها، حين ينتحى الوجهة الصحيحة فى منطق الأستاذ، وكانت المقالة الأولى تمهيداً موطّداً لما يليها، إذ تحدّثت عن الأسلوب السائد فى التدريس، ومدى صلاحيته، وعن الأسباب الموجبة للاحتفاظ بلغة القرآن، وجاءت المقالة الثانية لتتحدث عن وسائل الإخفاق فى تعليم هذه اللغة، ومن أهمها تكلّم الأساتذة باللغة العاميّة حتى فى

شرح مواد اللغة نفسها!!

وتتالت المقالات لتوضح أن اللغة ملكة لا تُنال إلاّ بالمِران الدائم والتكرار المُلِحّ، واستظهار القواعد دون المِران على قراءة النصوص الأدبية لا يُجدى فتيلاً، فى تكوين هذه الملكة، وإذا أراد الأساتذة أن يُوجدوا هذه الملكة فلابدّ من الإكثار من الشواهد المناسبة، وأن يحرصوا على تهيئة فصول سهلة لكبار الأدباء تكون زاداً للطلاب، على أن تكون مَشُوقة، تدفع إلى الاستيعاب فى شغف، حين تنحو منحى الشِعر السَلِس، أو القصة الطريفة، أو الخطبة المؤثِّرة.

وقد عقد موازنة بين طلاب يأخذون اللغة من الأساليب الصحيحة، وبين آخرين يأخذونها من القواعد ليثبت فائدة الأساليب، وإذا لم يكن من المُستطاع خلق بيئة فصيحة فى المدرسة، فلنخلق بيئة تحاول الابتعاد عن المبتذل من ألفاظ العاميّة وتميل إلى استعمال الألفاظ المشتركة بين العاميّة والعربية، وما أكثرها، بل ما أعظم قدرتها على استيعاب الخواطر، ولو قُدِّر لذوى الأمر أن يجمعوها لتكون فى متناول الطلاب.

وقد قال الأستاذ محمد عرفة، بعد أن أشبع الحديث

عن جدوى النصوص الصحيحة في استقامة الألسنة «يا قوم لقد جرّبتم طريقة القواعد في تعلّم اللغة العربية ألف مرة، وفي كل مرة تخفقون، فجرّبوا مرة واحدة طريقة الحفظ والتكرار، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة».

ومن أظهر ما اقترحه الأستاذ، أن يقتصر في التعليم الابتدائي على الاستكثار من المطالعة ودروس المحفوظات، ومثل ذلك في التعليم الثانوي مع إضافة قواعد اللغة بالقدر الضروري، وأشار إلى طريقة السلف في الإكثار من الشواهد والاهتمام بما تتضمن من صور وتعبير وفكر، وقد لاقى كتاب الأستاذ عن تعليم اللغة ارتياحاً كبيراً من العلماء، فأثنت عليه الأقلام في الصُّحُف الأدبية، وتناوله العلاّمة الكبير الشيخ عبدالقادر المغربي بالتلخيص في مجلة المجمع العربي بدمشق، إذ كتب فصلاً طويلاً عنه بدأه بإيضاح رأيه الخاصّ في طريقة تعلّم اللغة ثم قال عقب ذلك:

«هذه خلاصة ما كنّا ننصح به شداة الأدب من إخواننا، ولم يَدُرْ في خلدنا أن يقوم أستاذ جليل من جماعة كبار العلماء الأزهريين في مصر، وهو الشيخ محمد عرفة فيتناول هذا الموضوع، ويكتب فيه بلباقة

وحِذق سلسلة مقالات بلغت العشر أجاد فيها كل الإجادة وأحسن فى التنبيه والنّصح كل الإحسان.. وقد رأينا أن نلخص هذه المقالات الآنفة الذكر، وننشرها فى مجلتنا (مجلة المجتمع العربى العملى بدمشق) تعميماً لفائدتها، ثم تابع العلاّمة المغربى تلخيص المقالات فى إيجاز مفيد» [1].

وإن بحثاً عن تعليم اللغة العربية يهتم به العلاّمة المغربى هذا الاهتمام لذو سداد بليغ.

- ٣ -

ثم ماذا؟ هل وقف الشيخ لدى النقاش العلمى فى مسائل التشريع والأدب وعلوم اللغة العربية؟ أو أنه شارك فى مُعضِلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟

إن صحيفة الأهرام ومجلة الرسالة تشهدان بمقالاته الاجتماعية ذات الوعى البصير، وليست أخصّهما

(١) نشرت مجلة الأزهر، (ربيع الأول، سنة ١٩٦٣هـ)، ما كتبه المغربى نقلاً عن مجلة المجتمع، ومنه اقتباسنا هذا.

بالذكر لأنهما كانا وحدهما مجال إبداعه، بل لأنهما كانا موضع تفضيله، إذ أكثر من الكتابة فيهما بالقياس إلى غيرهما.

وللشيخ فى خطواته الاجتماعية شفافية ذات رفيف وقد كنّا نلمس هذه الشفافية فيما سمعناه من محاضراته الدينية فى جمعية الهداية الإسلامية، إذ كان وكيلاً لها يشارك رئيسها العلاّمة الشيخ محمد الخضر حسين فى توجيه الشبيبة دينياً وثقافياً، كما شاركه فى اتجاهه النقدى، فحملا أمانة القلم فى تقويم المعوج، وإن اختلفت الطريقتان عند التناول، لأن الشيخ الخضر كان يقسم الباب المنقود إلى فقرات متتالية لينقد كل فقرة على حدتها بما يعن له، أما الشيخ عرفة فكان يلخّص الباب جميعه ليكرَّ عليه بالنقد جملة واحدة، وللخضر إيجاز العالِم ودقّته، ولعرفة إسهاب الأديب ورقّته.

وسنقتصر هنا على التعليق على أثرين نفيسين من آثار الأستاذ محمد عرفة فى مِضمار السياسة، حيث كتب مؤلّفين هادفين أحدهما عن (الإسلام والشيوعية) وثانيهما عن (إنقاذ البشر من القنبلة الذرّيّة).

أما كتابه عن «الإسلام والشيوعية»، فقد سطّره

للموازنة بينهما، مبيّناً حقيقتهما، وأيّهما يوافق طبائع الوجود، وأيّهما مَدعاة التقدّم الإنسانى، وما علّة ذلك، وطبيعى أن يستعين بأقوال الدارسين فى توضيح الشيوعية، إذ أحاط خبراً بما قيل عنها، حتى تملأ من مناحيها، فاندفع إلى توضيح مراميها، لا ليتكاثر بالأقوال، ويتزيّد بالنصوص، بل ليحوك ثوباً جديداً من نسجه الخاصّ.

وفى الفصول الأولى أوضح مآرب الشيوعيين من تحطيم الملكية الفردية ومحو الدين من النفوس، والكفر بالله واليوم الآخر، وإيقاد نار الحرب بين الطبقات، وإماتة الشعور الوطنى، واتخاذ العنف والإرهاب والتخريب وسيلة للانتشار، ولا يظن أحد أن الرجل يخوض فى حديث معاد، فلكل كاتب ذاتيته الواضحة، وداء كالشيوعية يتطلب من علماء الإسلام أن يتآزروا على استئصاله، كل بما يعنّ له، وإذا اتّحد كاتب مع كاتب فى شىء، فلابدّ أن ينفرد عنه فى شىء آخر.

ومن أبدع فصول الكتاب: ما جاء تحت عنوان (اعتماد الشيوعية على العنف والإكراه) (١) إذ نقل

---

(١) الإسلام أم الشيوعية، ما بين ص٢٤ وص٣٦، ط دار الكتاب العربى.

الكاتب الكبير نصوصاً صريحةً للينين وستالين تدعو إلى إبادة المُخالفين، كان يقول الأول: «هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء، وإنما الشيء الهّام أن يصبح الرّبع الباقي شيوعيين» وحيث يدعو الثاني إلى الحرب وإن أغرقت الكون في الدماء، وبعد أن يكشف أهوال الشيوعية المدمّرة، ينتقل إلى الإسلام دين الرحمة والإنسانية، فيضع الصفحة الخضراء بإزاء الصفحة الحمراء.

وقد تحدّث عن ضرورة القتال في الإسلام دفاعاً وصوناً، لا بغياً وعدواناً، فأتى بما يقنع بالدليل، ويُضيُء بالنبراس، ثم أخذ يُدلي برأي الإسلام فيما تُجيزه الشيوعية من التجسّس، والإكراه على الإلحاد، وتحريم الملكية، والتآمر الخفي، والتزلّف الظاهري، خاتماً كتابه بفصل جيّد عن (موضع الدين الإسلامي من الأمة الإسلامية) التزم فيه جانب الصراحة حين رأى الكثيرين من علمائه ينصرفون عن مُحاربة الفساد، وعن إيضاح رأي الإسلام في مُعضلات الزمن، إلى التأليف في مسائل ذائعة مشتهرة، مستشهداً بآيات ساطعة من كتاب الله، ومواقف جادّة لزعماء العصر الذهبي للإسلام،

وناعياً على الأمة الإسلامية تفكّكها المتخاذل، ثم ختم القول بالرجاء الحارّ فى أن ترجع الوحدة، وتعود الألفة، فيتآزر المسلمون.

أما كتاب (إنقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضاً بالحرب الذرّيّة) فقد كتبت عنه فصلاً تحليلياً بمجلة الأزهر (المحرم ١٣٩٩هـ) تحت عنوان (عالم أزهرى يدعو إلى السلام العالمى) نظراً لخطورة موضوعه، وقد بدىء بفصل عن الحياد الإيجابى بين الكتلتين المتصارعتين، فاوضح أنه وَهْم لا حقيقة، إذ يفتقر إلى فلسفة نظرية تؤيّد اتجاهه تاييداً يدفع إلى تحبيذه الفعلى، إذ أن أكثر مَن يدّعون ظاهرياً هذا الحياد ينحازون إلى أحد المعسكرين، باطنياً، وفيهم مَن هو عين لهذا المعسكر يعمل لحسابه، مما يذهب برسالة عدم الانحياز.

وكان الأستاذ عرفة جاداً واقعياً حين أعلن أنه لا يناقش قضية الحرب الذرّيّة بمنطق الدين، لأن أكثر الدّاعين إلى الحرب لا يستجيبون إلى الهدى، ولو تتبّعوا تعاليم رسالة سماوية لكفوا عن الشرّ، كما أنه لا يتحاكم إلى الضمير لأن الفلسفة الوضعية قد أفسدت حقيقته فى منطق الكثيرين، فهم يرونه أثراً

من آثار التربية الاجتماعية يتّجه وجهتها فى الشر والخير دون أن يتقيّد بمثل، كما أنه لا يتحاكم إلى هواتف الخير والقيم العليا التى لا يجرؤ أحد على الشك فيها، لأن الناس مع افتتانهم بها نظرياً يجحدونها عملياً، على حدّ قول الله :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

[النمل/١٤].

إنما يتحاكم إلى المنفعة الذاتية التى ينشدها الجميع صراحة دون لَبْس، يتحاكم إلى المصلحة المادية التي يدور المُحتَربون فى فلكها، مهما اصطنعوا الشّعارات، وتظاهروا بالمبادىء، هذه المنفعة تنادى بالعمل على السلام، وتجنب الحروب الذرّيّة، لأنها إذا نشبت مع خطرها الهائل، ستعصف بالمنتصر والمنهزم معاً!! وإذا كانت العاقبة واحدة بالنسبة إلى الدمار الشامل الذى يعمّ الفريقين، فأى عاقل يعمل على استئصال أمته وفناء أهله وذويه؟

ثم تحدّث عن مذهب القوّة وكيف اعتنقته ألمانيا فهوى بها فى حربين عالميتين، إذ نزع من القلوب

عوامل الرحمة بالضعيف، وأخذت تعاليم «نيتشة» تدعو إلى إبادة الضعفاء من الألمانيين أنفسهم، فأنّى تكون لهذه التعاليم معشار شفقة بالبعداء؟

ثم كرّ على الشيوعية فتحدّث عن أخطارها حديثاً جديداً إذا قِيسَ بما كتبه من قبل، وإن التقى معه فى النتيجة القائلة بخطر هذا المذهب الحاقد، مع ما اعترف به من ظهور الفساد عملياً حين طُبِّقت آراء الشيوعيين فى بلادهم، حيث وأدت هذ الآراء حرية النفوس، ولم تُشبع الفقير، ولكنها أجاعت الغنى، وفقاً لأهواء قلة دكتاتورية، تتحكّم باسم الجماعة، لتغنم ثَراء القلّة القليلة.

وكان الرجل رائعاً رائعاً حين تحدّث عن أخطار القومية، داعياً إلى الإنسانية الشاملة التى تجعل الناس فى كل قارة سَواسية كأسنان المشط، والرجل الكبير وإن آثر تجنّب الاستشهاد بالنصوص الدينية فإن قارئه يستشعر فى كل سطر من سطور كتابه تشبّعه الحميد بروح الإسلام المُنصِفة وتعاليم القرآن الهادية، تلك التى لاحت حقائقها المُقنِعة فى بيان جزل آسر، ومنطق فصل حاسم، لو قرأه القارىء بعيداً عن شتّى المؤثّرات العارِضة، لأن

للحق صولة دافعة وسيطرة كاسحة تربط بينه وبين القلوب الصافية.

هذا بعض ما عنّ لى أن أرصده من صولات هذا الناقد العالِم المُصلِح، وقد تركت الكثير من مواقفه النقدية والإصلاحية، لأن الاستيعاب الشامل يكون فى كتاب مستقل، ولا يتمّ فى فصل واحد مهما تعدّدت صفحاته، وإذا فاتنا أن نستوعب فحسبنا أن نلفت غيرنا إلى الاستيعاب، ليجعل من كل عنصر باباً، فتتكامل الفصول وتأتلق القسمات.

إنقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضاً بالحرب الذرية

تأليف

فضيلة الشيخ/ محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد، فهذا كتاب كتبته أعالج فيه المشكلة العاجلة، مشكلة الساعة، ومشكلة المشاكل، مشكلة الإنسانية جميعها، وقوفها على حافة الهاوية، وتعرضها للفناء بالقنبلة الذرية.

وقد عالجتها من جذورها ومن أسبابها البعيدة، وعبت أولئك الساسة الذين يعالجون الفرع قبل الأصل، والمسببات دون الأسباب، لأن معالجة المسببات وترك الأسباب تفعل فعلها وتؤثر أثرها، علاج غير ناجع، وسعي في غير طائل.

وقد آمنت به إيماناً ملأ عليّ جوانب نفسي فلم أعد أشك فيه، ولا أرتاب في جدواه.

آمنت به لأن الدليل أقنعني، والحجة أرغمتني، ولأنه في نهايته المذهب الذي ارتآه فلاسفة الإنسانية من المتقدمين والمتأخرين، اعتنقه سقراط وأفلاطون، وأرسطاطاليس من فلاسفة الإغريق، واعتنقه الفارابي وغيره من فلاسفة الإسلام، ولم يرفضه ويقل بنقيضه إلا السوفسطائيون أصحاب الحكمة المموهة في زمن اليونان، وأصحاب المدن الجاهلة في عصور الإسلام، والفلاسفة الخداج من أمثال نيتشه في عصر النهضة الأوروبية، وإنما قالوا به لشبه قامت عندهم، ولو كانوا في زمننا هذا لم يقولوا به، لظهور الحجة وقوتها، فهي كالشمس في

رائعة النهار، ليس دونها حجاب، أيقنت أنه المنفذ الوحيد إلى نجاة الإنسانية. فإن صحت الأحلام فحظ لم يتوقع من رجل خامل الاسم، مغمور المكانة.

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت
وأين مكاني ما عرفن مكاني

وإن كان ذلك من الغرور الذى يعترض المرء فيخيل إليه أن الوجود قد اصطفاه وأعده لخير رسالة، وأنبل غاية، وأنه المنقذ والمخلص، فلا يعدم أن يجد فيه المشفقون على البشر جوانب خافية، وعليهم أن يكملوه، أو يكملوا به، وغير ضائع جهد يبذل فى أشرف غاية، فى إنقاذ البشرية من محنة لم تمر بمثلها فيما مضى من عمرها الطويل وستجدون فى هذا الكتاب بعض خلل فى الترتيب: فمعنى كان ينبغى أن يؤخر فقدم، ومعنى كان ينبغى أن يقدم فأخر، وستجدون بعض التكرار وبعض الغموض، وقد علمت ذلك قبل أن تعلموه، وكان ينبغى أن أصلحه، ولكننى آثرت أن أبادر بالكتاب أجلا يوشك أن يتصرم، وبدنا قد تهدم بعضه، وسائره يوشك أن يتهدم، وأن امرءاً لبس ثوباً سبعين حجة لهو موشك أن يبليه، وركب مركبا مثل هذا العمر لهو موشك أن ينضيه، وسار إلى منهل مثل هذا الأمد لموشك أن يرده. وخير أن يرى الكتاب النور ناقصا خداجا من أن يظل جنينا فى ضمير الغيب لا يدرى به أحد،

فربما بلغ من هو أوعى من صاحبه، وأقدر على إكمال النفع به. وإن أنسأ الله في الأجل واصلت العمل في هذه السبيل، فأكملت الناقص، وأحسنت الترتيب، ودعوت له، وبشرت به، ونشرته في الخافقين حتى يسير مسير الشمس، ويهب هبوب الريح ليقتنع به من قدر له الاقتناع حتى يبلغ الكتاب أجله.

وهو جهاد ما أمتعه من جهاد، وتعب خير من الراحة والركود، وهذا وصف لا يبلغ حقه، بل هو جهاد لو قيست به لذائذ الدنيا عندي لكان ألذ منها، جاد آنسني في وحدتي، ومتعني بعد أن فقدت متعتي، بل أعاد إليّ الشباب بعدم الهرم، والحياة وأنا في ظلمة العدم.

وحسبك من جهاد لو يعلم أصحاب التيجان والعروش ما فيه من سعادة ومتعة لجالدونا عليه بالسيوف.

محمد عرفة

مباحث الكتاب

أريد أن يدور كتابى على المباحث الآتية:

العالم على خطر ـ اهتمام المفكرين بإنقاذه ـ الحلول التى وضعت لذلك ـ عدم جدوى هذه الحلول ـ الحل الحقيقى أن نبحث عن الداء ونضع الحلول لاستئصاله ـ داء العالم فى آراء اعتنقها، وآمن بها، وسيرته فى الحياة، وهى تدعو إلى افتراق العالم، لا إلى اجتماعه، وإلى حربه، لا إلى سلمه ـ إحصاء هذه الآراء، وبيان من أين جاءته، وتاريخها فى القديم والحديث ـ مناقشتها وبيان مساويها ـ حض العالم على نبذها، واعتناق أضدادها.

بيان العلاج العاجل لتحرم الأمم التجارب النووية، ولتفنى القنابل الذرية، وهو إقناع ساسة الأمم بفساد هذه الآراء، وأن العدل مؤد إلى العمران، وأن الظلم مؤد إلى الخراب، فإذا ما اقتنعوا أبادوا ما عندهم من سلاح نووى، وتركوا التجارب النووية، ثم ربّوا الأمم على العدل وترك الظلم.

إقناع الساسة بأمور:

١- بيان حكم التاريخ لهم إذا استجابوا لحكم العقل فدمروا ما عندهم من قنابل ذرية، بأن البشرية لم تنجب خيرا منهم،

فإذا كان من أحيا نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً، فماذا يكون من أحيا الناس جميعاً، وأنقذ البشر جميعاً ما بقيت الدنيا؟.

٢- تصوير شؤم من جازف ورمى أول قنبلة، وبيان أنه أشأم من أقلته الغبراء، وأظلته السماء، وتصوير خلاء الدنيا والبكاء على من كانوا فيها وبادوا.

٣- بيان جرم الساسة إذا تمادوا فى طريق العدوان، وبيان الأصناف الذين يقع منهم الجرم.

توسعة البحث ـ دراسة المجتمع البشرى ـ بناؤه على الطمع والعدوان والبغض والختل والخداع، والجشع إلى المال ـ الأمم ابتليت بذلك كما ابتلى الأفراد ـ بيان خطأ ذلك وحمق من اقترفه ـ بيان أنه العدل مؤد إلى الحب، والحب مؤد إلى السعادة، وما أسعد البشر لو انتشر بينهم الحب ـ بيان أن التعدى يتولد عنه البغض والخوف وعدم الثقة، والبغض يتولد عنه الشقاء، وأن الشقاء الذى فيه البشر الآن من التعدى والظلم.

فلسفة الحياد الإيجابى

إن الجمهورية العربية المتحدة ودولا من دول آسيا وأفريقيا، وبعض دول أوربية قد اعتنقت مذهب الحياد الإيجابى، أى الحياد عن الكتلتين العظيمتين، المتصارعتين، روسيا ومن جرى فى فلكها من الأحزاب الشيوعية، وأمريكا وبريطانيا ومن لف لفهما من الدول الديمقراطية، وهى قد تطلق على نفسها الدول غير المنحازة.

ومن أخص صفاتها أنها تبغض الحرب، وتنشر السلام بينها وتود لو أن الكتلتين المتصارعتين تبغضان الحرب كما تبغضها، وتنشران السلام فيما بينهما كما تنشره.

وهى لا ترى وسيلة إلى الجمع بين المتصارعين وتيسير التفاهم بينهما إلا سلكته، فهى لذلك ليست تسلك الحياد السلبى الذى يريها أن لا ناقة لها فيها ولاجمل، فتعتزل الصراع العالمى، وترى أن تلزم بيتها، وتترك المتصارعين، وما هما فيه من صراع، بل تعتنق الحياد الإيجابى، الذى يجعلها تنظر إلى أم الأرض ككل لا ينفصل، متضامنة أجزاؤه، ما يصيب أحد أجزائه من ضرر إلا أصاب الآخرين، وأنه إذا وقعت الواقعة وقعت على سكان الأرض جميعاً، من هم فى وسط

المعمعة، ومن هم على الحياد، وأنهم كما قال الشاعر:

لم أكن من جناتهـــا علم الله

وإني بحـــرها اليـــوم صـــالي

هذا مذهب سلمى، وطريق خيرى، فإن كانت الأمم المتصارعة تنشر البغض والحقد والنار والشرر فأصحاب هذا المذهب ينشرون المحبة والرحمة والوئام، وهم يودون لأهل الأرض أن يكونوا فى جنة وارفة الظلال، يظللها السلام، وأن رجاء الإنسانية منعقد بهذا المذهب وأهله أن يمنع الحرب، ويبعد الكارثة، فهو شاطىء الأمان، وبر السلام.

ولكن هذا المذهب، ومكانته هذه المكانة، ومنزلة أهله هذه المنزلة، هل قام أهله بكل ما يجب له ليقرب من غايته، ويصل إلى هدفه؟.

نحن نجيب : أن لا، : إن أعظم ما ينقص هذا المذهب فلسفته، ونظرته إلى الحياة.

إن له شعارات يتسم بها، ولكن ليست له فلسفة تبين حقيقته البعيدة، وتبين نظرته إلى الحياة، وتقيم الأدلة على أحقية هذه النظرة، وتبين الخطأ الذى وقع فيه أهل الأرض لما كانت نظرتهم إلى الحياة خلاف تلك، ما أحوج أهل هذا

المذهب إلى أن يفلسفوه، ويبينوا مبادئه التى بنى عليها، ويبينوا أن أهل الأرض قد قربوا من الهاوية حين حادوا عن هذه المبادىء.

ما أحوج أهل هذا المذهب إلى أن يدعوا له، ويقنعوا به، ويحاولوا أن يدخلوا فيه من كان بعيداً عنه، وأن يقنعوا الكتلتين المتصارعتين بأن ما هم فيه ضلال، وسعيهم خائب، وأنه يجب أن يعتقدوا مذهبهم، ويؤمنوا به، ليستطيعوا أن ينقذوا البشرية من كبوتها، ويقيلوها عن عثرتها.

إنه يجب أن يفهموا، ويفهموا المتصارعين أن ما هم فيه من صراع مدمر مخرب للعالم نتيجة آراء ومعتقدات، يجب أن يتخلصوا منها، ويحلوا محلها آراء ومعتقدات تنتج نتائجها، فإن الكلمة الطيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

إن الشيوعية والرأسمالية لكل منهما فلسفتها، ونظرتها إلى الحياة وأدلتها، وحججها، التى جعلتهم يؤمنون بها، ويدعون إليها، ويرون أن الخروج عنها خروج عن الجادة، فلا بد أن يكون لهذا المذهب الجديد «الحياد الإيجابى» فلسفته، وأدلته، وبراهينه، التى تجعل الناس يؤمنون به، ولابد أن تكون من الوضوح، ومن القوة بحيث تجعل

الشيوعيين يهجرون مذهبهم، وتجعل الرأسماليين يتركون مذهبهم، وتجعل الجميع يعتنقون هذا المذهب الجديد، لقد رأيت هذا النقص فأردت أن أكمله، وهذا الخلل فأردت أن أسده.

فألفت هذا الكتاب ـ إنقاذ البشر من أنفسهم ـ وما أحسن هذا المذهب أن يكون مذهباً فلسفياً، له كل مقومات المذاهب الفلسفية.

إلام نتحاكم؟

إلام نتحاكم نحن ورؤساء الدول المتنافسة، الذين يعدون آلات الموت والخراب؟.

إننا نريد حكما يؤمنون به، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى به، لتجدى المحاكمة، ولا تكون نقشاً على الماء، وتعباً في غير طائل.

أنحاكمهم إلى الدين، ونقول هذا حلال، وهذا حرام، وهذا موصل إلى الجنة، وهذا مؤد إلى النار، وهذا فيه رضا الله، وهذا فيه غضبه وسخطه؟

إنهم كما يقولون شب عمرو عن الطوق، إنهم خلفوا الأديان وراءهم، وأصبحوا لا يؤمنون بدين، ولا يصدقون ببعث، ولا بجنة ولا نار، فلا يقبلون حكمه، ولا يصيخون لما قال.

أنحاكمهم إلى الضمير الإنساني الذى يثور لفعل الشر، ويسر لفعل الخير، والذى يخز صاحبه لفعل السيئة، ويبتهج لفعل الحسنة؟.

إنهم يرون أن الضمير فى الإنسان ليس فطرة، ولا حكمه عدلا، وإنما هو ابن التربية والبيئة، فلا يرضون حكمه، ولا يعدِّلون ما يوحي به، ونحن نراهم يقتلون الجيوش الجرارة، والآمنين من سكان المدن، ولا يتحرك لهم ضمير، ولا يحسون بألم ولا وخز.

أنحاكمهم إلى المثل العليا، والفضائل الإنسانية؟.

إنها عندهم أمور يستتر بها المرء لينال غرضه، ويحوز ما يريد. لقد التوت في يدى المقاييس، وليس فيما تقدم أصل أردهم إليه، ولا فيما يؤمن به الناس أمر يتفقون عليه، فهل أيئس من مناظرتهم، وأترك التعب في محاورتهم، وأقف من أول الطريق، فلا أنقل قدما، ولا أتحرك خطوة؟.

كلا لست أعجز، ولا أتأخر، إن بيدى أصلا سأحاكمهم إليه، وأعول فى إقناعهم عليه، هذا الأصل هو الطبيعة التى ركب عليها الخلق، وفطر عليها البرايا جميعا، وهى الحب لما يوافق، والبغض لما يؤذى، فهم فيها متساوون، وإلى الاعتراف بها مضطرون، فهم جميعا فطروا على حب جر المنافع، ودفع المضار، وبغض ما كان بخلاف ذلك، لا خلاف بين الخلق فيه، بل كما هو موجود فى الإنسان موجود فى الحيوان، هو فيهم طبع مركب، وجبلة مفطورة، سأجعل ذلك أصلى الذى أعتمد عليه، وأحتكم أنا وهم إليه، وسأستميل به قلوبهم النافرة، فتسكن بعد النفار، وتأنس بعد الوحشة، وسأصرفهم به عما فيهم من الطبائع المذمومة إلى الشيم المحمودة، التى بها عمران الدنيا، ونجاتها من الدمار.

أقول لهم: هذا فيه نفعكم ونفع البشرية، وهذا فيه ضرركم وضرر البشرية، والنفس مجبولة على حب النافع، وبغض الضار.

شرف هذه المباحث

ليس فى الدنيا أشرف، ولا أجل، ولا أسمى، ولا أقدس من هذا العمل الذى نزاوله ـ إنقاذ البشرية من حمقها المبيد، ولؤمها الماحق، فإذا كان الطبيب الذى يكشف عن الأمراض ودوائها شريفاً عمله فهذا أشرف منه.

وإذا كان الرائد الذى يتقدم قومه، فيدلهم على مواضع الخصب ويجنبهم أماكن الجدب، وإذا كان النذير الذى ينذر قومه بالجيش المغير عليهم، فيقول صبحكم أو مساكم، وإذا كان الكاشفون الذين يعرفون مناجم الأرض، وخيراتها الدفينة، وكنوزها المخبوءة ـ إذا كان هؤلاء كلهم عملهم شريف وسام فهذا العمل أشرف وأجل وأسمى من هذه الأعمال جميعا.

أين ما يزيد فى الخصب، مما يمد فى البقاء؟ أين ما غايته مصلحة أمة، مما غايته مصلحة البشرية جميعها؟ أين ما الغاية منه أمر كمالى أو ضرورى فردى أو جزئى، مما الغاية منه أمر ضرورى للبشر عامة، فى المرتبة العظمى من الضرورة، وهو الحيلولة دون فناء البشر، وإخلاء رقعة الأرض منهم، وإبادة هذا النوع الكريم، نوع الإنسان الذى لا نعلم مخلوقا أكرم منه؟

محنة البشر!

سكان الأرض على شفا الهاوية، يوشكون أن يتردوا فيها فيبتلعهم العدم، ويحرمون هذا الوجود! ذلك لأن العقل البشرى أعطى فيما أعطى قوة الإبداع والابتكار، فابتكر فيما ابتكر سلاحا رهيبا، هو القنبلة الذرية، وقد بلغ من قوتها أنها تعادل قوة مائة مليون طن من المتفجرات، أى أنها تدمر من الناس والحيوان والمدن ما تدمره هذه المتفجرات، وقد ملكها المعسكران القويان اللذان يسيطران على الدنيا[1]، وهما المعسكر الشرقى، وبينهما من الاختلاف فى المذاهب والعقائد والقيم ما جعل التفاهم بينهما عسيرا، وما يدعو إلى أن يخاف أحدهما الآخر، ولا يأمنه، ولا يطمئن إليه، لذلك تسمع الدنيا منهما الرعود القاصفة، وترى البروق الخاطفة، والغيوم المتلبدة، ويخشى بعد ذلك أن يجيء المطر المنهمر، لأن السماء إذا أرعدت وأبرقت وغامت كان ذلك نذيرا بالعاصفة، وبالمطر المدرار.

أصبح مصير الناس والحضارة بيد أفراد من البشر، والبشر

---

(١) وقت كتب المؤلف هذا الكتاب. وبرغم أن الذى يسيطر على العالم اليوم قوة واحدة إلا ان الخطر النووى مازال قائما.

ذوو نزوات وأخطاء، فرب نزوة من النزوات أوقعت الحرب الذرية، فإن لم تكن نزوة فخطأ من الأخطاء، يظن به أحد المعسكرين أن المعسكر الآخر قد أوقدها، وأنه إن فاته السبق الزمنى فلن يفوته أن يعاجله ما وجد إلى ذلك سبيلا.

هذا شيء يدعو إلى الأسى والحزن أن يكون مصير البشر بهذا الهوان، فيصبح بيد قوم من البشر، يشوب حكمتهم النقص، وعلمهم الجهل، وتنبههم الغلط والنسيان. وأدعى من ذلك للأسف أن البشر فى غفلة من هذا، والذين هم منتبهون إليه أعجز من أن يعملوا عملا، أو يحدثوا أثرا، والذين هم قادرون على العمل يعالجونه بغير علاجه، أو يعالجون النتائج ويتركون الأسباب، ولن تعالج المسببات ما دام السبب يفعل فعله، إنهم ينادون بالتعايش السلمى، وكل ما فى المجتمعات البشرية يدعو إلى التعايش الحربى، وإنهم ينادون بنزع السلاح، وهل توافق الأُسْد الضوارى أن تقلم أظفارها، أو تقلع أنيابها؟! إن ذلك منطق الشياه لا منطق الأسود، تقول الشياه ما على الأسود أن يعشن بلا أنياب، ولا أظفار، كما نعيش، وكما تعيش أجناس الحيوانات الأخرى التى ليس لها مثل ما للأسود من أنياب محددة، وأظفار مسنونة، وهو منطق الحمائم التى تقول: ما على النسر المحلق فى الأجواء، المفترس لصغار الحيوان، أن يعيش مهيض الجناح، بلا مخلب ولا افتراس، ولو

كـان لهن قلب الأسـود والنسـور، أى القلب الصـائل قـبل أن تصول الجوارح، أو الطبع المفترس قبل أن تفترس الأنياب، والأظفار، والمخالب، لعجبن كيف يقترح أن يتخلى الشرس عن شراسته، والمفترس عن افتراسه، وأن تتخلى سباع الطير وكواسر الأسود عن عزتها، وأسباب عزتها، وعن فرائسها التى جعلتها الطبيعة لها رزقاً طيباً، وطعاماً حسناً.

تقول جوارح الطير، وكواسر السباع إذا سمعن صغار الطيور وضعاف الحيوان يقترحن عليهن ذلك: إنهن يزينه لنا لنكون نحن وهن سواء، فيأمن خائفهن، ويطمئن مروعهن، ويشاركننا فى رزقنا الذى كان وقفاً علينا، لا تتطاول إليه الحشرات ولا الهوام، وإن كان المقترح من جماعة الأسود، وجماعة النسور، وطلبن أن يشتركن جميعا فى نزع البراثن، والأنياب، والمخلب، والمنقار قلن خدعة الصبى عن اللبن، يخدعننا عن براثننا، وأنيابنا بإيهامنا أن ذلك عمل مشترك، حتى إذا ظفرن منا بذلك أبقين على أنيابهن، وبراثنهن، وعشن ما بقى من أعمارهن بأنياب محددة، وأظفار غير مقلمة، وأجنحة تضرب فى أجواز الفضاء، وعشنا نحن بجناح مهيض، وسلاح مفلول، والويل للمغلوب، والذل للمخدوع.

هذا هو الوضع فى الأمم القوية، قلوب مفترسة قبل أن تفترس الأسلحة، وآراء مهلكة قبل أن تهلك القنابل الذرية والصواريخ

الموجهة، فإذا اقترحت الأمم الضعيفة على الأمم القوية نزع سلاحها، قالوا منطق الشياه والحمائم، وإذا أراد الأقوياء بعضهم من بعض أن ينزعوا هذا السلاح المبيد للبشرية، المخرب لهذا الكوكب الأرضى، شك بعضهم فى بعض، وظنوا أن الآخرين يخدعونهم عن أسلحتهم، ليبقوا هم مدججين بالسلاح، وهيهات أن يغنى الأعزل عن نفسه شيئا، وهيهات أن يرحمه خصمه الذى هو شاكى السلاح، خبير بموضع ضعفه !.

العلاج الناجح

إذا أردنا العلاج وجب أن نبحث عن العلة والسبب، فإذا عرفت العلة فذلك أول خطوة في طريق العلاج، فتجب إزالتها، والتوقى منها، ليزول المرض، ويتم البرء والشفاء.

ههنا تعدٍ وافتراس، تعدّ من الإنسان على الإنسان، وافتراس أشد وأفظع من افتراس الأسد الضوارى، فافتراس هذه افتراس واحد بعد واحد، وافتراس هؤلاء بالألوف والملايين، حتى أوشك هذا الافتراس أن يبيد النوع الإنسانى، فما هو علة هذا التعدى؟ أهو طبيعة وجبلة؟ وحينئذ لا تمكن إزالته، وهذا قدر محتوم سيفنى البشر، ويخلو وجه الأرض منهم، أم ذلك لأمر خارجى، إذا أزيل زال؟

نحن نرى أنه لأمر خارجى إذا أزيل زال توحشه، وتعديه، وافتراسه، وصار البشر رحماء بينهم، متآخين متعاونين.

إن الافتراس جاء الإنسان من آراء سبعية اعتقدها، وكانت مبدأ سلوكه فى الحياة، ومن الممكن أن يرى نقيضها، ويبنى سلوكه فى الحياة على هذا النقيض، فيحسن سلوكه، وتحسن معاملاته، ويستطيع أن يعيش فى سلام وتعاون، مع كل فرد من أفراد النوع الإنسانى.

وإن الافتراس جاء الإنسان من أغراضه فى الحياة، ومن غاياته العظمى فيها، فأدت به إلى الافتراس، وإلى التوحش فى السلوك، فإذا غيرت غاياته العليا أمكن أن يستبدل بهذا التوحش أنساً، وبالافتراس عدلا، فى المعاملة وفضلا.

أما إذا بقى البشر على آرائهم السبعية، وغاياتهم المريضة فى الحياة، فلا يمكن أن يتخلوا عن الافتراس، وعن التوحش والتعدى، وعن فتك الإنسان بأخيه الإنسان.

ولا يمكن أن ينزع الافتراس من الإنسان مادامت هذه العوامل قائمة تفعل فعلها، وتؤثر أثرها.

يجب أن نغربل آراء الإنسان، فنعلم الآراء السبعية منها فنفرزها، ونسلط عليها النقد فنعلم زيفها، وبطلانها، وندعو العالم إلى نبذها، ويجب أن نتعرف أغراض الأمم من الحياة، وآمالهم التى يسعون فى حياتهم إليها، ونبين الباطل منها وندعو إلى اجتنابه، والصالح منها وندعو إليه، وإلى الاستمساك به ـ يجب أن نقنع كل أمة به، لأن ذلك يتوقف عليه أن يعيش العالم فى سلام، وأن تنجو البشرية من دمار ينتظرها.

إن ذلك كان يمكن فيه الريث والأناة.

أما الآن فالعجل العجل ـ والساعة الساعة ـ والبدار البدار.

يأس ورجاء

إنى أرى من خلل الغيب قوماً متشائمين يستبطئون هذا العلاج ويقولون إلى أن ترجع الرحمة إلى القلوب، وإلى أن يربى المجتمع تربية إنسانية تكون القنبلة الذرية قد دمرت العالم، إما بنزوة القادرين، وإما بخطئهم وطيشهم!!

وقالوا: يعود الماء فى النهر بعدما
ذوى نبت جنبيه وجفت مشارعه

فقلت: إلى أن يرجع النهر جارياً
ويعشب جنباه تموت ضفادعه

فكما أنه إذا نضب ماء النهر، وذوى نبته، وشرقت ضفادعه، لا يجوز التعلل بعودة ماء النهر ثانية، فتحيى الزرع، وتروى الضفادع، لا يجوز التعلل بذلك، لأن الأمد بعيد بين جفاف النهر وعودته، تموت فيه الضفادع ولا تبقى لها حياة، كذلك لا يجوز التعلل بأن الإنسانية ستقنع بأن التعدى مهلك، وأنه هو الذى أوصلها إلى حافة الهاوية، وأنه إذا دام فسيهلكها فتترك سبيل التعدى الذى قطعت فيه أشواطاً بعيدة، وترجع من أول الطريق وتسلك سبيل العدل، فإلى أن تفعل ذلك يكون ذلك السيف المصلت على رقاب البشر قد أهلكهم، أو ذلك

البركان الفاغر فاه قد ابتلعهم ـ قلنا إننا نؤمن بهذا الإنسان وبعقله الواعى، وبحصافته وبرويته وأناته. ومحال أن هذا العاقل، الواعى، المبدع، المبتكر، يبدع ما يطيل عمره ويقيه شر الآفات والمهلكات فينجو منها جميعا، ويبدع ما يرفه عيشه، ثم يعفى على ذلك كله فيهلك نفسه، محال أن يفعل الشيء وضده، يحى ويميت، يحى الإنسان الذى أفنى عمر الإنسانية الماضى فى إحيائه، ويميت ذلك الإنسان فى طرفة عين، وفى لمح البرق، فيكون كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وكالذى ربى طفله حتى صار شاباً يافعاً ثم قتله.

إنه أعز على نفسه من أن يبخعها، وأضن بجهود الملايين من السنين أن يضيعها، إنه فقط بحاجة إلى أن يعرف موقفه، وأنه أسوأ موقف مر به فى حياته، وإلى أن يعرف العلة فيه والسبب، وإلى أن يعرف عدوه الذى لم يخلق أعدى منه، ثم كيف يتخلص من أعدائه جميعاً ـ إذا عرف ذلك سار فى الطريق السوى الذى يسعده، لأن من طبيعة الإنسان إذا عرف أخطاءه وأضرارها، تخلص منها، فيكون الخطأ نعمة، والداء دواء، ورب مرحوم من داء هو دواؤه.

وإنى مؤمن بأنه لا يقف عند هذا الحد، بل هو سيمضى صعداً فيتسامى على نفسه، ويعلو على جنسه، ويكون إنسان اليوم، بجانب إنسان الغد، كالحيوان الأبكم بجانب الإنسان الناطق، ولعل كتابى هذا أول خطوة فى سبيل النجاة.

إمكان الإنقاذ

التدبير فى هذا الإصلاح أن أقنع به رؤساء الدول المتصارعة الشيوعية، والرأسمالية، فإن اقتنعوا، قاموا بالحل العاجل، وهو إفناء القنبلة الذرية، والكف عن التجارب النووية، ثم كانت لهم سعة من الوقت يحملون فيها أممهم على ما رسمت من إصلاح.

وإنى مقتنع بقدرة الحكومات على تشكيل أممهم كما يريدون، لأنها بيدها وسائل الدعاية والإعلام، من صحافة، وإذاعة، وبيدها زمام التربية والتعليم، فالوسائل إلى ما تريد مهيأة، والنجاح محقق إذا أحسن تدبير الوسائل.

ولى على ذلك شواهد:

١ - انتهت الحرب الثانية، واستولت روسيا على الجزء الشرقى من ألمانيا، واستولى الغرب على الجزء الغربى منها، فإذا الجزء الذى استولى عليه الشيوعيون شيوعى، والجزء الذى استولى عليه الرأسماليون رأسمالى، حتى برلين انقسمت إلى هذين القسمين، كما اقتسمها المعسكران.

٢ - لم يجد أحد من أحد ما وجدته بريطانيا من ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية، فلقد صبت عليها العذاب صباً، فهدمت بطائراتها

مدنها العامرة، وخربت مصانعها، قتلت الشبان المتفتحين للحياة، والشيوخ العاجزين والصبيان الذين لا حول لهم ولا قوة، ثم دارت الدائرة على ألمانيا، وكسبت بريطانيا وحلفاؤها الحرب، ومضت سنون أصبح فيها الحليف منافساً خطراً، ورأت بريطانيا أن لابد لها من صداقة ألمانيا، والاستعانة بها، فخطب تشرشل خطبة خاطب فيها الشعب البريطاني، بعد أن عدد ما لاقته بريطانيا من ألمانيا فقال:

«أيها الشعب الكريم، إنس فإن الكريم نسَّاء، إنكم ستسيرون مع ألمانيا في الحياة، إلى غاية واحدة، فاستعينوا على وعثاء السفر بالوفاق، وعلى بلوغ غايتكم بالصداقة، كونوا أصدقاء طيبين، ورفقاء متعاونين».

بهذا وأمثاله أدركت بريطانيا بعض ما تريد من نزع ما في صدور الأمة الإنكليزية من حقد على الألمان كانت تنوء به حياة الأمتين.

٣- سجل بعض المراقبين أن الصينيين يزورون عن الأمريكان، ويتجنبونهم إذا زاروا بلاد الصين، يتجنب شبانهم شبانهم ورجالهم رجالهم، فكأنما عناهم الشاعر بقوله:

فيا عمرو إنا لو تُشاط دماؤنا
تزيَّلن حتى لا يمس دم دما

وذلك لما زرعته الحكومتان في نفس الأمتين من كراهية وحذر..

الآراء السبعية وخطرها

أخطر شيء على البشرية، وأدعى إلى تقويضها وفنائها رأى يقول إن العدل منفعة الأقوى، أى إن ما يفعل لمنفعة الأقوى فهو عدل، فإذا كانت منفعة الأقوى فى قتل الآخرين، أو تسخيرهم لخدمته فذلك عدل لا ظلم فيه، ولا يتأثم منه.

هذا الرأى كان فى العصور القديمة، ولكن ما كان يعتنقه علمياً إلا السوفسطائيون، أى أصحاب الحكمة المموهة، وقد تصدى له أفلاطون فى جمهوريته، فجاء على لسان ثراسيماخس السوفسطائى أدلته والشبه التى تؤيده، وجاء على لسان سقراط ما ينقضها، ويبين أن العدل هو إعطاء كل ماله، وهذا الرأى ـ أى رأى السوفسطائيين ـ كان فى العصور الإسلامية يعتنقه من يقول عنهم الفارابى إنهم أهل المدن الجاهلة أو الضالة أو المبدلة، وقد تولى بيان أدلتهم، وتوسع فيها، وأفاض فى شرحها حتى ليظن القارىء أنه يعتنقها، ثم لم يعقب عليها بالبطلان استغناء بما قدمه من بيان آراء أهل المدينة الفاضلة، وتأييدها بالحجج المقنعة.

ثم ورد فى العصور الحديثة على ألسنة بعض الفلاسفة كنتشه الألمانى، وقد اعتنقه رجال الحكم فى أوربا وساستها.

هذا من جـهـة النظر والعلم، أما من جـهـة العـمل فكانت الشعوب تعمل على مقتضى ذلك إلا من اعتقد بدين، ونفذ أحكامه وأوامره.

من هذا الرأى كان الاستعمار، وهو امتلاك أمة متقدمة أرض أمة متأخرة، واستغلال ما فيها من خيرات، واستخدام هذه الأمة المستعمرة فى منفعة الأمة المستعمرة، كل ذلك عدل عند أمم الاستعمار، فإذا قاومت الأمم الضعيفة الأمم القوية، ودافعت عن أرواحها، وأملاكها، فقهرتها الأمم القوية فذلك عدل، وإذا استعبدتها واستخدمتها فى منافعها فذلك أيضاً عدل.

هذا الاستعمار الذى هو استيلاء أمة قوية على أمة ضعيفة، واستغلالها أرضها، واستخدامها أهلها، لاينكره فلاسفة أوروبا، ولا كتابها، ولا أدباؤها، ولا ساستها، بل ربما عدوه عملاً أخلاقياً لما فيه من تعمير الأرض البكر واستثمارها، وذلك فيه خير للعالم، ولو تركت هذه الأرض بيد أهلها ما عمرت، ولا استثمرت ولبقيت على حالها من البداوة والخراب.

وقد ظل تسابق أمم أوروبا على امتلاك أرض أفريقية وآسيا وممالكها حتى أصبح العالم قسمين: قسماً مُستَعْمِراً وهم أهل أوروبا، والولايات المتحدة وقسماً مُستَعمَراً وهم أهل أفريقيا وآسيا وشعوب أمريكا اللاتينية، وأصبحت الأمم الأولى أقوى وأغنى من الأمم الثانية بدرجات كثيرة وبعد ما بينها بعداً

شاسعاً كبعد ما بين المشرق والمغرب، أوما بين السماء والأرض.

أدى هذا الوضع إلى شيئين:

أولهما نزاع وخصام بين الأمم المُسْتَعْمِرة والأمم المُسْتَعْمَرَة، هذه ترى أن الأولى ظلمتها وأخذت حقها في الحياة وأرضها وثروتها، والأولى ترى أنها لم تظلم لأنها أخذته بحق الفتح وبحكم القوة، والعدل هو منفعة الأقوى أو الحق للقوة، وكانت تنتهي هذه الثورات دائما بزيادة التحكم والاسترقاق، وكان يحكم فيها الحديد والنار!

ثانيهما: نزاع وخصام بين الأمم القوية نفسها، إذ يرى بعضها أنه غبن، أو أنه أنقص حظاً وأقل نصيباً، من صاحبه ويعبرون عن ذلك بالمجال الحيوى.

تنازع الأقوياء على الأسلاب، وتقاتلوا على الغنائم، وكان هذا النزاع بين متكافئين فكان كل منهما يخاف صاحبه ويحذره ويعد له من المهلكات والمفنيات ما يقدر عليه، لم يدخر كلاهما وسعا في ابتكار ما يهلك به صاحبه، وما يحامي به عن نفسه، وكلما ابتكر أحدهما سلاحاً جديداً ابتكر الآخر سلاحاً أبلغ منه في الإفناء والإهلاك، حتى كانت الخاتمة أن صنعت القنبلة الذرية والهيدروجينية، وهو سلاح يدمر القرى والمدائن

ويهلك الملايين من البشر في مثل رجع الطرف، ويترك إشعاعاً ذرياً ذا أثر سيئ على صحة البشر وقد كان هذا السلاح محتكراً لدولة واحدة، هي أمريكا ففجرت قنبلتين منه على هيروشيما ونجازاكي من مدن اليابان فدمرتاهما في ليلة واحدة فلم يطلع الفجر إلا وهما قد سويتا بالأرض تدميراً وإحراقاً، وقد هلك من فيهما، وقد سلمت إثر ذلك اليابان، وأقرت بالعجز والهزيمة لأنها رأت ما لا قبل لها به.

ولكن زال هذا الاحتكار، وانتقل إلى روسيا، فعرفت سر القنبلة الذرية والهيدروجينية كما انتقل إلى بريطانيا وفرنسا وهو بسبيل أن ينتقل إلى أمم وشعوب أخرى.

لقد تسابقت روسيا وأمريكا في الاستكثار من القنابل الذرية، تنافسوا في المخزون منها حتى أصبح عند كل واحدة منهما ما يكفي بعضه لفناء ما على الأرض، ويتكفل بإبادته وإن البشر الآن يقفون بين الرجاء والخوف، رجاء أن يثوب ساسة الأمم وقوادها إلى رشدها، ويفسدوا المخزون من هذه الأسلحة، ويحرموا تجاربها وإنتاجها من جديد، فيسلم البشر، وينجوا من الهلاك، وخوف أن يركب الساسة رءوسهم ويمضوا في سبيلهم حتى تقع الواقعة وتفجر القنابل، وليس لها حينئذ من دافع فيفنى البشر، ويكونون هم الذين أفنوا أنفسهم وأخربوا بيوتهم بأيديهم، وعلى أهلها جنت براقش، وما

ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

هذا مجمل تاريخ الموقف الحاضر ، ومجمل الأسباب التى أدت إليــه من ذلك يعلم أنه الظلم والعدوان ظلم الأقـوياء للضعفاء وتعدى القادرين على العاجزين ، وامتلاك أرضهم وتسخيرهم فى خدمة الأقوياء ، ولما قاوم الضعاف الأقوياء ألحوا عليهم بالظلم حتى سقطت المقاومة فسلط بعضهم على بعض ،

وما من ظالم إلا سيبلى بأظلم

واالظلم مرتع مبتغيه وخيم

وما كان هذا العمل الفاسد إلا من العلم الفاسد ، فقد اعتقد الساسة أن ما يأتون من امتلاك الشعوب ، والسيطرة على أراضيها وثرواتها ومصايرها عدل ، ليس فيه ظلم ، لأن العدل هو منفعة الأقوى ، فما يفعله الأقوى فى سبيل وجوده أو فى سبيل وجود أفضل فهو عدل ، ليس بظلم ، وحق ليس بباطل .

بعض الآراء السبعية فى أوروبا

لقد أبنّا أن علة البشر آراء سبعية اعتنقوها، وأفكار وحشية آمنوا بها، فعدا بعضهم على بعض، وافترس قويهم ضعيفهم، حتى أوشكوا أن يبيدوا نوعهم، ويهلكوا جنسهم.

ونريد الآن أن نذكر بعض هذه الآراء، وننسبها إلى قائليها وقد فعلت فى المجتمع البشرى فعل النار فى الهشيم، والسم فى الجسم السليم، من ذلك ما قاله مونتسكيو فى «روح القوانين»:

إذا كان عليَّ أن أدافع عن حقنا المكتسب فى اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيداً، فإننى أقول إن شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب أفريقيا لكى تستخدمها فى استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة، وما شعوب أفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ذوى أنوف فطس إلى درجة يكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها، وحاش لله ذى الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحاً أو على الأخص روحاً طيبة فى جسد حالك السواد».

أليس معنى ذلك: استعمروا ما شئتم من الأرض، واستعبدوا

من أردتم من أهلها، فإن نفقوا كما تنفق الدواب في خدمتكم ففي شعوب قارة أفريقيا بديل، فاستعبدوهم وانقلوهم إلى أمريكا عبيداً مسخرين لفلاحة أرضكم، واستصلاح أرض أمريكا الشاسعة وإن إبادة العبيد الأولين عذر لكم في استعباد الآخرين!

أكلت أناساً فأبليتهم

وأبليت بعد أناس أناساً

ألىس هذا هو العذر الذى هو أقبح من الذنب؟ أليس هذا مثل غسل الدم بالدم، وتكفير الذنب بالذنب؟

قال نيتشه: «الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا وهذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية ويجب أيضاً أن يساعدوا على هذا الفناء».

أى الرذائل أشد ضرراً من الشفقة على الضعفاء العاجزين؟ لا رضا، بل قوة أكثر وأكثر، لا سلام مطلقاً، بل حرباً، لا فضيلة، بل مهارة.

ما الخير؟ كل ما يعلو فى الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة والقوة نفسها.

ما الشر؟ كل ما يصدر عن الضعف.

ما السعادة؟ الشعور بأن القوة تنمو وتزيد، وبأن مقاومة ما قد قضى عليها.

هذه بعض آراء نيشته من فلاسفة العصور الحديثة.

وهذه الآراء لا تقدس إلا القوة وقد سرت في المجتمعات الغربية، ومن لم تجر على لسانه قولاً جرت على جوارحه فعلاً، ولا أدرى أأخذتها المجتمعات الغربية من نيتشه، وأمثاله من الفلاسفة، أم كانت في المجتمعات الغربية من قبل نيتشه، وقد تأثر بها وفلسفها؟ وأياما كان فهذه الآراء، لا يمكن معها نزع السلاح ولا التعايش السلمي.

وأى تعايش سلمي مع من يرى أن لا سلم مطلقاً بل حرباً ولا فضيلة بل مهارة؟ وكيف تنتظر الرحمة ممن يرى أنها رذيلة وأنها أشد الرذائل ضرراً؟

ثم يمضي نيتشه في سلسلة يسلم بعضها إلى بعض فيقول: ليس الوجود إلا الحياة، وليست الحياة إلا إرادة، وليست هذه الإرادة إلا إرادة القوة.

ثم يمضي فيرى أن الحياة لاتستطيع أن تحيا إلا على حساب حياة أخرى، لأن الحياة هي النمو، وهي الرغبة في الاقتناء، وإرادة سطو على الآخرين، وطابعها المميز لها هضم ما للآخرين، فهي إذن عنصر هدم، وإفناء وإيذاء، ولا يمكن أن تفهم على غير هذا النحو.

وأن هذا الاستيلاء سيجد مقاومة من أنواع الحياة الأخرى

التى تصطدم وإياها ، وكلما كثرت المقاومة واشتدت الخصومة زادت قيمة الحياة وفى المقاومة أخطار والحياة تنشد الأخطار فكأن إرادة القوة هى فى الوقت ذاته إرادة الخطر ، ولهذا قال «كى تجنى من الوجود أسمى ما فيه ، عش فى خطر» .

وإذا وصل الناس إلى هذا لم ينفع معهم قول فى جرهم إلى السلام ، والسلام الدائم .

وإنى أرد بكلمة حاسمة أن الخطر الذى يدعو إليه نيتشه خطر غالب ومغلوب ، وخطر فرد أو أفراد ، أو أمة ، أو أمم وليس خطر إفناء البشرية ، وضياع الحضارة ، فلو أدرك نيتشه عصر القنبلة الذرية لغير رأيه ، لأنه لا يريد الفناء ، وقد رد على شوبنهور الذى قال : إن العالم إرادة ، ولما كانت الإرادة شيئا يدفع الإنسان دائما ، ويثير فيه رغبات متجددة باستمرار ، ولما كانت هى كل شئ فى الوجود ، وليس خارجها شئ ، فإنها ستظل دائما دون إشباع ، لأنها لا تستطيع أن تجد شيئاً خارجها يمكن أن يشبع رغباتها .

من أجل هذا كله فليس للوجود غاية ، والنتيجة العملية هى القضاء على إرادة الحياة أى الفناء ، وقد رد على شوبنهور لأنه طلب للإرادة غاية خارج الحياة ، ولم ترضه النتيجة التى هى الفناء .

وعلى أننى أشك فى هذه الفلسفات كلها فلسفة «نيتشه» و «كانت» و «شوبنهور» وأضرابهم من الذين يجعلون الحياة إرادة، وهل هى إرادة الحياة، أو إرادة القوة.. الخ.

ونقول لهم: الحياة ليست إرادة، لأن الحياة قبل الإرادة، لإن الإرادة هى النزوع إلى بعض ما أحسه الحيوان أو تخيله، أو استنبطه، واشتاقه.

فلابد من حياة قبلها، ولابد من إحساس، أو تخيل أو تعقل قبلها، والمتقدم غير المتأخر، والشرط غير المشروط، فليست الحياة إرادة، ولا الإرادة هى الحياة.

ولعل قائلاً يقول: إن العبارة مجازية، والكلام على التجوز، أى الحياة الكاملة هى الإرادة كما يقولون: «فلان عاش حين مات، والأمم المتقدمة هى الحية، والرجال ذوو الإرادة القوية هم الأحياء، وغيرهم أموات.

قلنا: ونحن العقلاء جميعا نأبى المجاز فى لغة الفلسفة، فالفلسفة تبنى على تحديد العبارة، ولذلك منع أهل المنطق أن يستعمل فى التعريف لفظ مجازى، لاسيما فلسفة تبنى على هذا التجوز أن الوجود لا غاية له إلا العدم والإفناء، فلسفة تقوض الحياة، أوفلسفة تقود العالم إلى الفناء من حيث يدرى أو لايدرى.

على أننا نسينا أننا نكلم الساسة، ورجال الحرب، والكتاب والأدباء، ولا نحب أن نثقل عليهم بهذه الفلسفة، وإنما نحن نكلمهم بلغة الخير والفائدة.

يقول نيتشه: «إن الشفقة فضيلة المومس، ويقول مع شاعر الأساطير «إن فوتان كبير الآلهة في هذه الأساطير قد وضع في صدرى قلباً قاسياً»، ويقول: «يجب عليك القسوة فمن هذا الطريق وحده يرتفع الإنسان إلى أعلى، حيث يقابله البرق ويحطمه فلترتفع إلى البرق ارتفاعا كافيا.

ويقول نيتشه على لسان زرادشت ناصحا الرجال الممتازين: ستبحثون سيعاً وراء عدوكم، وستناضلون نضالكم وتجاهدون من أجل أفكاركم، فإذا هزمت أفكاركم فإن على إخلاصكم أن يسر لهزيمته.

وستعشقون السلام كوسيلة لحروب جديدة، وستفضلون السلام القصير المدة على السلام الطويل.

ولست أنصحكم بمزاولة الأعمال، ولست أوصيكم بالسلام، ولكن بالصبر والانتصار، فليكن عملكم إذاً نضالاً، وسلامكم انتصاراً.

أنتم تقولون إن القضية الجيدة تقدس الحرب، أما أنا فأقول لكم: إن الحرب الجيدة هي التى تقدس كل قضية.

هذا ما يقوله نيتشه للرجال الممتازين فى إغراء آل الامتياز بأصحاب الكثرة، فهو يغرى الكيف بالكم، الذين لهم قوة وامتياز بالكثرة التى لا قوة لها إلا فى كثرتها.

أما ما يقوله الطرف المقابل فهو يتجلى فى أقوال كارل ماركس ولينين: أما كارل ماركس فقد عرف موضع القوة فى الكثرة وهو كثرتها فقط، ووضع مؤامرة محكمة الحلقات للقضاء على أصحاب الامتياز وحكوماتهم، وقد ترى أن ذلك مسطراً فى تعاليم ماركس ومذكرات لينين وهى لا تقل شدة وقسوة عما قاله نيتشه وأمثاله ممن ينصرون الكم على الكيف.

وقد كتب الزعيم الشيوعى لينين إلى مكسيم جوركى الأديب الروسى رسالة يقول فيها: «هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشئ وإنما الشئ الهام أن يصبح الباقى منهم شيوعيين» فهو يستبيح هلاك ثلاثة أرباع العالم. يا للقسوة! ويا للفظاعة! لايبالى بهلاك ثلاثة أرباع العالم مادام الربع الباقى سيصبح شيوعياً، ولكن ما قوله إذا كانت الحرب ستفنى الشيوعيين وغير الشيوعيين كالحرب الذرية التى وصل إليها البشر؟ إنه لا يرضى بها، إنه يحبذ حرباً تبقى ربع العالم ويكون شيوعياً، ولم يحبذ حرباً تفنى العالم كله، وهو لا يريد حرب إبادة للجنس البشرى، بل يريد حرباً تبقى منه من يكونون شيوعيين.

فيا عجباً لزعماء الشيوعية الذين يقلدونه في شدته هذه في العصر الذرى!

فأنت ترى أن كلا الفريقين لايريد أقل من القضاء على الآخر، إنما يريد روحه التي بين جنبيه، ولا يرضى بما دونها.

كلاهما مغال وآثم، وكلاهما ذو شطط وجنف وكلاهما لا يستقيم منطقه مع العصر الذرى الذى جعل الحرب ليست حرب غالب ومغلوب، وإنما هي حرب انتحارية، لهما وللبشرية، فيجب أن يعدل الفريقان من خططهما، ويجب أن يفهما عصرهما الذى يعيشان فيه، والآفة العظمى أن يتطور كل ماحول المرء ولايتطور هو، وأن يحكم بأفكاره العفنة القديمة في عصره المتطور، الذى اجتازها بمراحل وأن يستعمل مقاييسه القديمة في عصره الجديد، الآفة العظمى أن يجمد الناس على أفكارهم، ولايريدوا التحلل منها، ولاينتبهوا إلى أنها أصبحت ضارة لانافعة، وقاتلة لامنجية، ومن عجب أن تسمع هذا الصوت من رجل محافظ مثلي، شأنه المحافظة، وديدنه التزمت، وهذا دليل على بطء الساسة في التحول وجمودهم عن التطور، البطء شاهد محس، والجمود على الأفكار القديمة شاهد محس أيضاً.

أليست أداة الحرب هى الذرة المبيدة للمتحاربين، وليس فيها غالب ومغلوب، بل فيها فناء البشرية، وتقويض الحضارة؟

أليس الفريقان المتنافسان يكثران من القنابل، حتى إن بعض المخزون منها كاف لفناء البشر، وتقويض العمران؟

أليس الفريقان يتنازعان على أحقر الأشياء، ويهددان ويقربان من هاوية الحرب، كأنها حرب بالعصى، أو بالقوس والنبل والسيف والرمح، وليست حرباً مبيدة للنوع؟

إنه يجب إبعاد فكرة الحرب، لأنها إن لم تبعد فسيأتي في القريب ما هو أفظع وأنكى وما ستكون الذرة بالنسبة إليه كأدوات الحرب الماضية بالنسبة إلى الذرة، إن العلم فتح أبوابه على مصاريعها، وإن العقل البشرى المبدع آخذ في الإنتاج والإبداع وإن لم يحول هذا الانتاج إلى العمران، وسعادة البشرية، فسيبقى أداة إرسال إلي هاوية العدم.

ولست أعيب بالجمود رواد الشيوعية الأول، ككارل ماركس وأنجلز، ممن يقفون فى جانب الكم، ولا أعيب بالجمود نيتشه وأمثاله، ممن يقدسون الكيف، وإنما أعيب بالجمود خلفاء المذهبين من حكام روسيا وحكام أمريكا وبريطانيا.

كارل ماركس جاء فى عصر تحكم فيه الكيف بالكم، وظلمه أقبح الظلم، وقد طغت فيه الرأسمالية على العمال طغيانا مبينا، فوضع مذهبه هذا من التآمر على الرأسمالية فى العالم، والعمل على تحكم البروليتاريا فى العالم، ولم يكن يقدر

الموقف الذى العالم فيه الآن، حربا ينتحر فيها البشر، ويتولون هم إبادة الجنس البشرى، وإخلاء الأرض منهم، وإنما كان يقدر حربا تنتصر فيها البروليتاريا، وتأخذ الحكم، ثم يأتى بعدها الوضع الذى لايحتاج فيه العالم إلى حكومة، فكان مذهبه فى رأيه إصلاحاً، لاإبادة البشر.

كذلك نيتشه رأى هجوم الكم على الكيف، الكثرة على القلة الممتازة، وهو يرى أن كل تقدم للبشرية منشؤه الفئة الممتازة، هؤلاء من الخسارة العظمى أن تخلو الأرض منهم، فأخذ يحرض الفئة الممتازة على العامة والدهماء، ويطلب منهم حربا لا سلاما، وقسوة لارحمة، ومهارة لافضيلة، ويطلب منهم أن يركبوا الخطر، وأن يعيشوا فى خطر، لأنه كان يريد إعلاء طبقة على طبقة، وسيادة طبقة فى الحياة، وما كان يريد للبشرية أن تنتحر، وتعمل بنفسها ماعجزت عوامل الطبيعة عن عمله، فالبراكين والزلازل والصواعق والحر والبرد لم تبد البشر، وإنما نجا منها جميعا، وما عجزت السباع والوحوش وكواسر الطير عنه، لأنها كانت تخافه، وتبغى أن تستريح منه، وما عجزت الطواعين والأمراض والكولرا والهواء الأصفر عنه، عجزت كلها عن إفنائه، فهل يجىء هو فيفنى نفسه فى لمحة الطرف.

ولو كان يعلم نيتشه مثل ما يعلم هذا القرن، أن الحرب نهايتها فناء الجنس البشرى، لما قدسها هذا التقديس، ولما قال

إن الحرب هي التي تقدس كل قضية، بدليل أنه عاب شوبنهور لأنه يقول بالعدم، وأنه كان يفضل بعض الآراء لما فيها من خير للبشرية.

ألا تراه قد وضع فلسفته، وحض عليها، لأنها تعين على إيجاد الإنسان الأعلى والإنسان كما يقول وتر مشدود بين الحيوان والإنسان الأعلى، وتر على هاوية.

لست أعيب بالجمود هؤلاء، وإنما أعيب بالجمود خلفاءهم، الذين يرون الموت فاغراً فاه ليبتلع البشرية، ويرون مع ذلك تنفيذ مذاهب سابقيهم حرفياً، كأنها نظام من نظم الكون لا يتغير ولا يتبدل.

أيها الساسة، خففوا من غلوائكم، وليتنازل كل منكم عن بعض آرائه، ولتتقابلوا في نصف الطريق.

القومية والإنسانية

إن البشر قد تطوروا من حيث الاجتماع، فقد كان المجتمع أولاً الأسرة، ثم القبيلة، ثم القرية، ثم المدينة، ثم الأمة.

والرباط السائد الآن هو القومية، ويظهر أن الدواعي كلها تدعو إلى الإنسانية، وأن يدخل الناس كلهم في المجتمع الكبير، ولكن تأخر النظام السياسي عن ذلك، فمازال الرباط هو القومية ومازالت قوانين الأخلاق مبنية على ذلك، وكذلك السياسة فالكذب والظلم ونقض العهود محرمة في الأمة الواحدة وليست ممنوعة في خارج دائرة هذه الأمة، بمعنى أن المرء لا يجوز له أن ينهب أموال أحد من أمته، ويجوز له أن ينهب أموال من هو خارج أمته، وكذلك الكذب ونقض العهود، وهو شبيه بما كان عليه اليهود من قولهم:

﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾(١).

وقد وجب الآن أن ينتقل الناس في الأخلاق والسياسة إلى المجتمع الكبير وتكون الرابطة بين الناس هي الإنسانية لا القومية، فيحرم الغزو، والفتح، ونقض العهود والكذب في داخل هذه الرابطة.

كان ينبغي أن يكون ولاء الإنسان لأخيه الإنسان، وبغضه

---

(١) آل عمران (٧٥)

وسخطه على من خرج عن قانون الإنسانية، وأخلاق الإنسانية.

وذلك يوجب تغيير علم السياسة، فيكون موضوعه ليس هو الأمة، وإنما يكون موضوعه الناس جميعاً.

ويتبع ذلك تغيير علم الأخلاق، فتكون الفضائل لا بالقياس إلى الأمة فقط، وإنما بالقياس إلى الناس جميعاً، فكما لا يجوز لفرنسا أن تستعمر طولون أو اللوار، أو كاليه، وتطبق عليها قانون المستعمرات، كذلك لا يجوز لها أن تستعمر غينيا أو السنغال، أو السودان الفرنسي، وتطبق عليه قانون المستعمرات.

كل ما في الدنيا يدعوا إلى ذلك: قرب المواصلات- الطائرات- الإذاعات- معرفة العالم بعضه بعضا- انتفاع العالم بعضه من بعض- تضرر العالم بما يصيب بعضه كالأزمات الاقتصادية والأمراض الوبائية، وأخيراً هذه القنبلة الذرية التى نشأت عن القومية، وسياستها وأخلاقها!

وهذا العامل الأخير سائق بمهمازين إلى الأممية العالمية.

هذا أو الغرق! هذا أو الموت الزؤام! هذا أو الموت العاجل الماحق للبشر جميعاً!!

لقد اعتنق الناس رباط القومية، لأنه كان يحقق مصلحتهم، فكان منه قوتهم، وغناهم، وتقدمهم، فإذا أصبح مبدأ ضرر، ومؤدياً إلى هلاك البشر، وجب العدول عنه والركض، فراراً منه إلى الإنسانية التى تشمل الناس جميعاً، وتسعد الناس جميعاً، وتبعد الشر والضرر عن الناس جميعاً.

الثنائية في الأخلاق والأحكام

في العالم أخلاقية ثنائية، أو أخلاقية مزدوجة، فالفعل الواحد عدل وفضيلة، ثم هو ظلم ورذيلة، فالغضب والتعدى عدل وفضيلة مع شعب آخر، وهو ظلم ورذيلة إذا مارسه المرء مع مواطن له.

وهذه الثنائية ركزت في النفوس واختلطت باللحم والدم، وصارت لا شعورية يحكم بها المرء دون وعي وانتباه، ومع الوعي والانتباه، وهذا الازدواج في الأخلاق وفي الحكم على الأشياء منشؤه القومية، فقد ربى كل شعب أفراده على حب قومه والعدل معهم، وعلى بغض الآخرين، أو على مبدأ ليس علينا فيهم سبيل.

هذه القومية كانت ذات جدوى، وكانت ذات فضل على الحضارة والمدنية. وما ينعم به البشر الآن من تقدم وازدهار فهو من آثارها، ولكن استنفدت أغراضها، وأصبحت شؤماً وشراً على البشرية، وبحسبك أن القنبلة الذرية بعض نتائجها، وأنها إذا بقيت تؤدى نتائجها، كان الهلاك والدمار للجنس البشرى.

هذه الدائرة التى جعلت كل جماعة حول نفسها يؤدون الخير لمن هم في داخلها ويناوئون من هم خارجها، أدت إلى

الخصام والنزاع والحروب وابتكار ما به يغلبون وينتصرون، ومما ابتكر للغلب القنبلة الذرية.

يجب إذن أن تزول هذه الثنائية الأخلاقية، وهذا الازدواج في الأخلاق والأحكام، ويصير الظلم محرما ممن وقع وعلى من وقع سواء أكان على قومه أم خارج قومه، ويصير العدل حقاً وفضيلة كذلك، وهذا لا يكون إلا بمحو القوميات وما يترتب عليها. وتاريخ الاجتماع البشرى يدل على أن ذلك سيكون، فقد كان الاجتماع اجتماع أسرة ثم قبيلة ثم مدينة ثم أمة، فهو لا يقف، وإنما يتدرج ويتسع، وهو سيسير فى تدرجه واتساعه حتى يشمل المعمورة بأكملها.

ونحن لا نستعجل ذلك الآن، ولا نستحث الحوادث، وإنما نتركه لقانون التطور يفعل فعله، فكما تطور المجتمع من الأسرة إلى القبيلة ثم إلى القرية، ثم إلى المدينة، ثم إلى القومية على مهل، كذلك سيتطور المجتمع القومى إلى المجتمع الإنسانى على تدرج ومهل.

آفة البشر

آفة البشر الآن من أمرين :

أولهما حكامه الذين ليسوا فلاسفة ، لذلك كانت نظرتهم موضعية ليس فيها عموم ، ولا شمول ، إنهم ينظرون إلى أمتهم فقط وما يجلب الخير إليها ، وما يغنيها ويجلب المال إليها ويجعلها أوفر ثراء ، وأكثر مالا ، وليست لهم نظرة الفيلسوف الذى ينظر إلى الإنسانية جميعاً ككل لا يتجزأ ، وما يوفر الخير لها ، ويدفع الشر عنها .وهل أشد ضررا ممن ينظر نظرة ضيقة محدودة ، فى حين أنه كان يجب أن ينظر نظرة أوسع وأشمل؟ يمتد بصره إلى الأمم جميعاً ، إلى العالم الأرضي ، بحدوده ، وأبعاده ، وآفاقه البعيدة .ومن يدرى؟ فربما كانت الخطوة التالية أن ينظر إلى العالم كله ، بأرضه وسمائه وأقماره وشموسه ، فيجعلها داخلة في سياسته .

الأمر الثاني عدم تطور فكره ، فلا يزال يستعمل الأساليب القديمة التي بليت وقدمت ، ولا يصح لإنسان العصر أن يستعملها .

وسأضرب لذلك مثلين :

١ ـ بعد ظهور القنبلة الذرية وامتلاك المعسكرين إياها ، لا

يزال كلا المعسكرين يهدد الآخر بأن يشن عليه حربا ذرية، مع أنه يعلم والناس جميعاً يعلمون أن خصمه سيجيبه بإطلاق قنابله، فيكون الهلاك لهما جميعاً، فيصبح هذا التهديد تهديداً لنفسه وأمته بالهلاك والدمار أشبه شيء بتهديد المرء الناس بأنه سينتحر. وهل رأيت أدعى إلى الضحك والاستهزاء من هذا؟!

إن ذلك كان مقبولا في عصر لم تكن فيه الأسلحة فتاكة إلى هذا الحد، وكانت عاقبة الحرب مغيبة غير معلومة، ولم تكن الحرب معناها انتحار الفريقين المتحاربين والناس جميعاً، ولكن الساسة لا يزالون يفكرون بالعقلية القديمة، ولم يتطور تفكيرهم فيكون على مقتضى العصر الذرى.

٢ ـ إن الناس ينظرون إلى استعداد ساستهم للحرب الذرية، وإلى التجارب النووية، وإلى المؤتمرات التي تعقد لنزع السلاح وترك التجارب النووية، تعقد ثم تفشل، ثم تعقد ثم تفشل، وهكذا دواليك، ينظرون إليها ساهمين لاهين، كأنما المعنى بها غيرهم!!

أفيقوا أيها الناس، أنتم المعنيون بها، ومعنى ذلك إبادتكم وخلو الأرض منكم، فكل استعداد للحرب إنما معناه استعداد لإبادتكم وفنائكم، وكل إخفاق في مباحثات نزع السلاح إخفاق في دفع الفناء عنكم، والسبب في هذا الجمود الذى نراه

بالبشر ، أن عقلهم لم يتطور ، فقد كانوا فى الحروب الماضية لا يبالون بالاستعداد لها ، بل كانوا يسرون ، لأن معناه كان الدفاع عنهم ، أما الآن فمعناه هلاكهم وهلاك البشرية ! فلم يتطور تفكيرهم وبقوا على ماكانوا عليه فى عصر ما قبل الذرة ، وكان يجب أن يتطور إلى عصر الذرة فيرغموا ساستهم على ما فيه خيرهم وخير البشرية .

إننا نرى الفئتين المتقاتلتين فى القديم يتطور فكرهما قرب آخر المعركة عنه فى أولها ، فقد تدخلان المعركة وكلتاهما تريد القضاء على الأخرى ، فإذا تبين أن قوتهما متعادلة وأن لا فضل لإحداهما على الأخرى ، وأن التمادى فى الحرب مؤد إلى هلاك الفئتين ــ طلبتا الهدنة والمصالحة خوفا من الفناء الماحق ، فقد دخلتا المعركة بفكرة ، ولكن الظروف اختلفت فاختلفت الفكرة ، تطورت الفكرة بأسرع من لمح الطرف ، أفما يجب أن يكون ذلك الآن ، وقد علم مقدما نتيجة الحرب الذرية ، وعلم أنها الانتحار للمتقاتلين كما هى انتحار للبشر جميعاً ؟ إننا أحرى بالتطور والتعقل والتغيير .

حمق أو تفاهه

ليت شعرى، أحين يهدد الغرب والشرق، والشرق الغرب، بأن سيطلقان الحرب النووية، أيعنيان حقاً ما يقولان، أم لا يعنيان ما يقولان ؟

إن كان الأول فما أحمقهما إذ يفنيان البشرية فى غرض تافه من الأغراض !

وإن كان الثانى فإنا نجلهما أن يكونا كالفتوين الفاشلين، يهدد كلاهما الآخر، ويكثران من الصياح، ولا يقرب أحدهما من الآخر قيد شبر، وخير لهما أن يتركا ذاك، ويبحثا عما يخرج الجنس البشرى من محنته، وينقذه من ورطته، خير لهما أن يتركا هذا الهوس والحمق، ويعملا عملا ليس فى الأرض أمجد منه، وهو إنقاذ البشر من الفناء.

من علامة حمق المرء أن يختل تقديره للأشياء، فيبيع الكثير بالقليل، والنفيس بالحقير، ويستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، فإذا رأينا ساسة الدول الكبرى يضعون مستقبل البشر وفناء الإنسانية فى كفة ومشكلة كمشكلة برلين فى كفة، فيهددون بالحرب الذرية الساحقة إذا لم ينفذ غرضهم، وينالوا طلبتهم فعلام يدل هذا إذا اطردت العلامة؟

مابرلين بجانب عمر البشرية كلها؟ وما بوتسدام وألتونا وميونخ وليبسك ودرسدن؟ وما ألمانيا الغربية والشرقية؟ بل ما أوروبا بجانب البشرية المهددة بالفناء والدمار؟!

قد تبين مما سردناه من حوادث التاريخ، أن مشكلة الإنسانية هي من التعدى والظلم، ولا نجاة للإنسانية إلا بالعدالة وترك الظلم ولكن يبدو لنا أن المسألة ليست هينة إلى هذا الحد، فهناك قضايا يشك فيها ونحتاج إلى الاستدلال عليها ليزول الشك، وتكون المقدمات يقينية لتكون النتيجة كذلك.

فمثلا ربما قيل: إن نجاة البشر لا تتوقف على العدل، فهناك أمور أخر تنجي البشر وربما قيل إن القنبلة الذرية ليست شديدة الخطر كما يظن الظانون، ويتوهم المتوهمون.

وربما قيل إن التعدى فى الإنسان طبيعى لا يمكن إزالته، لأن ما بالطبيعة لا يتخلف، فإذا وصفت العدل دواء لداء الإنسانية وصفت ما لا يتحقق ولا يكون، فتكون كجماعة الجرذان اللائى شكون من اعتداء القط عليهن، فاقترح بعضهن أن يعلق جرس فى عنق القط وقال: إذا اقترب منكن سمعتن صليل الجرس فأختبأتن فى جحوركن، وهكذا لا ينال القط منكن منالا، فقال جرذ محنك: هذا دواء حسن، ولكن من يضع الجرس فى عنق القط؟.

ويقال بالمثل : إن العدالة دواء ناجع، ولكن كيف تحقق العدالة، ويمحي التعدى، والتعدى من طبيعة الإنسان وما بالطبيعة لا يزول؟ لذلك رأينا أن نكتب فصولا لتحقيق المقدمات وإزالة الشبه الواردة عليها حتى تكون يقينية لتنتج اليقين.

هل من عاصم للإنسانية!

لم يبق من حاجز بين الإنسانية وبين فنائها بالقنبلة الذرية إلا القنبلة الذرية نفسها ؛ لأن المعسكرين المتخاصمين إذا علم كلاهما أنه يملك القنبلة الذرية كما يملكها الآخر ، علم أن الحرب التي تقوم حينئذ ليست حربا ينتصر فيها فريق وينخذل فيها فريق ، وإنما هي حرب تأتي على المتحاربين جميعا ، فتكون هذه الحرب إلقاء باليد إلى التهلكة ، أي انتحاراً لا حربا ، ولا يقتصر ضررها على المتحاربين بل سيعم جميع سكان المعمورة ، وربما أتت على جميعهم ، وإذا أبقت ، أبقت على قليل ، فسيتأثر بالإشعاع الذرى ،فإذا نجا ، نجا إلى حين ، فيكون ذلك كافا لهما عن إيقاء الحرب والمجازفة بالبشر .

هذا هو الحاجز الوحيد بين الإنسانية ، وبين فنائها كلها ولكنه حاجز غير حصين ، فيه مواضع عدة للخطر .

منها أن الصين الشيوعية تؤمن بمذهب كارل ماركس ولينين دون أن تطوره ، وأن تراعى مقتضى الزمن فيه وما جد من سلاح مدمر للبشرية إذا شهر ، وهذا المذهب هو أنه لابد من حرب لا شفقة فيها ولا رحمة ، تشن على الرأسماليين فتقضى عليهم وتنتصر الشيوعية ، وتأخذ الحكم من أيديهم ، ويعم هذا المذهب

سائر الكرة الأرضية ، فإذا دخلت الصين فى عداد من يملك القنبلة الذرية وطبقت هذا المذهب وأطلقت القنبلة الذرية من عقالها ، أطلقت الهول والرعب والدمار فكانت القاضية .

ومنها أن من الناس من يهون من حرب القنبلة الذرية والأيدروجينية فيشن حربها بناء على ما فى نفسه من تهوين لأمرها وقد سمعنا من بعض رجال الحرب والسياسة فى الصين أن القنبلة الذرية نمر من ورق ، أى يخيفك منظره ولا يسوؤك مخبره .

ومنها أن المعسكرين يختلفان أفكاراً وعقائد ومشاعر فيكثر أن يخطىء أحدهما فى فهم الآخر . والخطر كل الخطر فى هذا الفهم المخطىء ؛ فالعقيدة الشيوعية أصبحت عند معتنقيها ديناً ، ففيها ما فى العقيدة الدينية من حماس واندفاع وفداء ، وقد يخطىء فهم ذلك المعسكر الغربى ، ويقيسه على نفسه فإذا هو يرى خصمه يقتحم المخاطر ولا يحسب حساب الربح والخسران ، وإنما يحسب حساب الفداء والتضحية أو تقدم العقيدة بعض التقدم .

وقد يرى المعسكر الشرقي أن بلاده فسيحة الأرجاء بعيدة الأنحاء بخلاف المعسكر الغربى ، فإن بلاده آهلة بالسكان ، متكدسة بالقاطنين فيحسب ذلك الشيوعيون ، ويرون أنه إذا تكافأ التدمير بقى من المعسكر الشيوعي من يقوم بالدعوة ومن

ينشر المذهب فيتم الانتصار.

ومنها أن يخطىء أحدهما فى التقدير، ويكون رأيا مخطئا بأن خصمه سيهاجمه لا محالة، وأنه إن لم يباغته أخذه بغتة فيأخذ زمام المبادرة، ويتغدى به قبل أن يتعشى به الآخر، ويعمل بالمثل القائل «اقتل اللص قبل أن يقتلك».

ومنها أن تنطلق قنبلة ذرية خطأ من أحد المعسكرين فتصيب المعسكر الآخر، فيظن الواقعة قد وقعت، فيجيب بالمثل، وهكذا تنشب الحرب الذرية المدمرة!!

ذكرت الجرائد سراً كان مطويا، وهو أن الحرب الذرية كادت تقع ذات يوم لأن أجهزة الردار فى أمريكا تنبأت بتفجير قنبلة ذرية من روسيا فتجهزت أجهزة الحرب فى أمريكا من طائرات تحمل القنابل الذرية ومن غواصات كذلك، ومن صواريخ عابرة للقارات، لولا أن تبين خطأ الرادار.

والأخطاء كثيرة لا تنحصر، فقد يكون الخطأ ممن يتولون أمر القنبلة واقعاً على أمتهم.

أذاع عالم أمريكى سرا خطيرا عندما أعلن أن قنبلة هيدروجينية سقطت من طائرة أمريكية بطريق الخطأ فوق ولاية كارولينا الأمريكية كان يمكن أن تمحى من الوجود وسكانها ٤ ملايين لولا أن تعطل صمام من ست منع الانفجار المروع.

وقد يعتقد رئيس حكومة تملك القنبلة الذرية بعض المعتقدات القديمة الفاسدة التي ترى أن الوجود شر ، وأن العدم خير منه .

إن العالم على خطر وإنه مهدد في أى لحظة بالفناء .

ليس الحاجز بين البشر وبين فنائهم بالقنبلة الذرية حصينا كما قدمنا ، بل فيه ثغرات بهذه الاحتمالات التي بسطناها ، وإن واحدة منها تجعله دكا ، وهكذا تقع الواقعة ، وهكذا تقوم الساعة ، وهكذا يفنى البشر !!

وإذن فالعالم يعيش على خوف ، يمسى على هلع ، ويصبح على حذر ، ولا قرار على زأر من الأسد ، ولا يجوز أن تبقى هذه الحال ، وإن للساسة ورؤساء الدول أن يلعبوا بكل شيء إلا هلاك البشر ، وخراب العمران ، وفناء المدنية .

لابد أن نبحث عن حاجز آخر ، لابد أن نبحث عن عاصم يعصم الناس من الإبادة والهلاك ، ويعيد لهم الأمن والدعة ، ولن يكون هذا إلا بالاتفاق على نزع السلاح وإبادة القنبلة الذرية قبل أن تبيد البشر ، إنه يجب أن يستحضر الناس هذا الذى بيناه وأن يتتبعوا سير مؤتمرات نزع السلاح ، وأن يعملوا صادقي النية في منع التجارب النووية وإبادة الموجود منها ، من خبيث النية المعرقل لهذا المشروع العظيم ، الذى لا يقل عظما وسموا عن إحياء البشر جميعا .

الحرب الذرية وخطرها!

هل الحـرب الذرية شـديدة الخطر كـمـا يتـصـور بعض الناس ،وكمـا جرينا في كتابنا عليه ، أو هي نمر من ورق كما يقول بعض الصينيين؟

نحن ننقل هنا رأى خروشوف في مدى تدمير الحرب الذرية وكذلك ننقل بعض ما نشره اتحاد فايكنج الأمريكي في تحقيق للصحافة باسم:

«أمن الدولة والإشراف الدولي على الأسلحة الذرية»

ليعلم أن الفريقين المتنازعين يعلمان مدى تدمير الحرب الذرية.

قال خروشوف أمام مجلس السوفيت الأعلى، على أثر انفراج الأزمة الكوبية الرهيبة:

«ماذا يحدث لو أننا لم نضبط أنفسنا في أثناء الأحداث الكوبية، كانت الحرب النووية سوف تشتعل، وعشرات وعشرات من ملايين الناس كانوا سيهلكون في بلادنا، وأيضاً في الولايات المتحدة، والدول الأخرى الكثيفة السكان، كانت ستهلك تماماً أيضاً. وهؤلاء الذين كانوا سيظلون على قيد الحياة والأجيال المقبلة كانوا سيتعرضون لآلام لا تصدق من آثار الإشعاع النووى!!!

أما ما جاء في التحقيق الذى نشره اتحاد فايكنج الأمريكى فهو : «ولنفترض أن الروس نجحوا فى إغلاق الحدود بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، واستولوا على برلين كلها . إذن فسياسة التخويف قد فشلت وأصبحت برلين ملكا للروس.

إن الولايات المتحدة تدرك أن قواتها التقليدية فى أوروبا لا تستطيع أن تطرد الروس من برلين وستحاول فى بداية الأمر بطرق مختلفة من الضغط أن تزحزح الروس عن مكانهم وفى النهاية ستجد أمريكا أنه ليس أمامها إلا طريق واحد وهو الطريق الذى صرفت على إعداده نفقات باهظة وأعدته لهذه اللحظة ومن ثم تشن هجوماً ذرياً استراتيجياً ضد الاتحاد السوفيتى.

ولا شك أن كمية التفجيرات الذرية التى أعدتها قيادة الطيران الأمريكى لهذه اللحظة والتي يمكن أن تستخدمها خلال ٢٤ ساعة من الأمور السرية جداً ولكن من الممكن تقدير هذه الكمية بما يترواح بين ١٨ و ٢٠ كيلو ميجا طن. «أى ٢٠ ألف مليون طن من مادة ت . ن . ت».

وما من شك فى أنه بعد هجوم الولايات المتحدة بهذه الكمية من المتفجرات فإن ٨٥ ٪ أو ٩٠ ٪ من الشعب السوفيتى سيصبح بين قتيل وجريح خلال الستين يوماً الأولى من هذا الهجوم، وأن روسيا ستفقد مدنها الكبرى وكثيراً من قواعدها الصناعية. وبهذا يكون القادة السوفيت قد أساءوا تقدير

النتائج المترتبة على احتلال برلين.

بقي سؤال.... إذا وصلت الحالة بروسيا إلى هذا الحد هل تكون أمريكا قد انتصرت؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نفترض أنه في إمكان روسيا الرد على أمريكا بما يسمى في العمليات الحربية «الضربة الثانية»، وفي مثل هذه الضربة تستطيع روسيا أن تهاجم فوراً ب ٢,٥ كيلو ميجاطن من المتفجرات الذرية، وفي رأى الكثيرين أن هذه الكمية أقل من الحقيقة التي تضعها روسيا تحت يدها في الوقت الحاضر، وأنه من المرجح جداً أن يكون لدى روسيا في أى هجوم خلال الأربع السنوات القادمة ٥ كيلو ميجاطن على الأقل.

وهذه الكمية كافية أمام وسائل الدفاع الأمريكية الحالية أن تقتل ما بين ٧٥ و ٨٠ ٪ من الشعب الأمريكي أى حوالى ١٤٠ مليون أمريكياً خلال الستين يوماً الأولى من الهجوم الروسى. ولا بد أن نفترض أنه لو استعملت روسيا كمية من القنابل الذرية أقل مما تستعمله أمريكا فإن خسائر أمريكا ستكون أفدح نظراً لطبيعة بلادها الجغرافية والجوية.

بل لن تتوقف الخسارة بعد انتهاء الهجوم على أمريكا وسيستمر عدد القتلى في الزيادة فيما بعد؛ نتيجة للإشعاعات الذرية.

التقليل من الخطر

إذن ماذا يجدر بالولايات المتحدة أن تتخذه من خطوات عاجلة للتقليل من خطر الحرب ؟

والإجابة عن هذا السؤال قد تصدم الذين ينادون بنزع السلاح أو على الأقل إحكام الرقابة على الأسلحة . غير أن أكبر خطوة في سبيل السلام ـ في رأى أمريكا ـ هي تقوية الأسلحة الرئيسية التي يمكن أن تستخدم في هجوم «الضربة الثانية ، وهي غواصات «البولاريس» وصواريخ المنيت مان .

وأسلحة البولاريس يمكن إطلاقها من تحت سطح البحر وهي تحمل رأساً ذرية قوتها ٠,٦ ميجاطن . والتجارب الآن على أشدها لإدخال «تحسينات» على البولاريس لتصبح رءوسها الذرية ذات قوة تصل إلى واحد ميجاطن فضلا عن زيادة مدى الصواريخ . وفي تقدير أمريكا أنه كلما أصبح لديها العدد الكافي من غواصات البولاريس فإن الاتحاد السوفيتي لابد أن يتوقع نسبة عالية من الخسارة والأذى .

وبالإضافة إلى ذلك تعد الولايات المتحدة الآن نوعا من الطائرات التي يطلق عليها «الدروم دارى» لاستخدامها في الهجوم الانتقامي . وهي طائرات بعيدة المدى تستطيع أن تحلق .

بصفة مستمرة طوال أربعة أيام أو خمسة وتمون بالوقود فى الفضاء.

ومهمة هذه الطائرات المزودة بصواريخ المنيت مان أن تطير فوق المحيطات وفى شمال أمريكا فإذا حدث هجوم من روسيا على أمريكا، تهبط هذه الطائرات بعد انتهاء الهجوم فى أية بقعة سلمت من الهجوم وتعد الصاروخ وتضرب أ هـ.

أصبح الفريقان المتنافسان الشيوعية والرأسمالية بعد أن امتلكا القنبلة الذرية، لا يثقان بالنصر إذا شنا حربا، بل يثقان بأنهما سيهلكان معا، بل ربما يبيدان النوع الإنسانى معهما ويقوضان الحضارة. وما من شك فى أنهما يودان بجدع الأنف أن يتخلصا من هذا الدمار، ويخلصا العالم منه، والسبيل إلى ذلك المفاوضة فى التخلص من هذا السلاح الذرى، وما إخفاق المؤتمرات والاجتماعات التى تنشأ لنزع السلاح ومنها السلاح الذرى، إلا من سوء ظن كليهما بصاحبه، فهو يخافه ويتوقاه ويظن أن ما يعرضه خدعة ومكيدة.

فأزمة العالم الآن أزمة ثقة، وذلك جناية البشر على أنفسهم، فقد اعتادوا نقض العهود والمواثيق والغدر والخديعة، واعتادوا أن يقولوا شيئا ويضمروا غيره، وكما اعتادوا الحرب بالمصاولة والمجاهرة، اعتادوا الحرب بالخديعة والختل، حتى شاع على ألسنة ساستهم أن المعاهدات قصاصات ورق لا تساوى ثمن

الحبر الذى كتبت به.

وكانت إحدى الدول تعقد المعاهدة مع دولة أخرى صباحا وتنقضها مساء، حتى شاع أن عقد المعاهدة دليل أول على قرب الهجوم.

هذه السياسة أملاها عليهم حب النصر القريب، والغلبة العاجلة بأى ثمن، فهى سياسة تنظر إلى الحرب الحاضرة ولا تنظر إلى ما بعدها، وكان ينبغي أن تكون هناك استراتيجية ما بعد الحرب، فيفكروا عند وضع الخطة للحرب الحاضرة فى الحرب المستقبلة، بل يفكروا فى السلم، وما تكون عليه الأمم.

لو وجدت هذه الاستراتيجية لما فكروا فى نقض العهود وعدم احترام المواثيق، مخافة أن يصلوا إلى هذه الحال التى يحتاجون فيها أشد الحاجة إلى الثقة ولا يجدونها.

كانت بعض الدول تسخو فى الوعود بالجلاء عن الدول التى احتلتها حتى تبلغ الستين والسبعين، ثم يتبين أن هذه كلها أكاذيب، الغرض منها التمكين لها حتى تقبض على ناصيتها. انتصرت فيما حاولت ولكنها خسرت الثقة وحسن الظن، وكان يظن أن ضرر ذلك موضعى وخاص، فإذا الأيام تبين أنه عام، وأن العالم إذا قدر له أن يهلك بالحرب الذرية، فإنما أهلكه سوء الظن، وعدم الثقة، ولعل هذا هو السر فى احترام الأديان

والأخلاق للعهود والمواثيق، حتى إن بعضها يوصي بأن من خاف من قوم خيانة فلينبذ إليهم على سواء.

للناس حكمة ذهبية كتبت في كتب المطالعة للمدارس الابتدائية في جميع بلاد العالم وهي آفة الكذب ألا تصدق في الصدق، أى لايزال الرجل يكذب حتى يعرف عند الناس كذابًا فإذا قال الصدق أضافوه إلى ما اعتادوه منه فلم يصدقوه، ووضعوا المعنى في أساليب مختلفة.

الغلام الذى كان يسبح في الماء، ويجيد السباحة ثم يتظاهر بالغرق ويطلب الخلاص فيسرع الناس لخلاصه، فما أن يخلعوا ملابسهم وينغمسوا في الماء، حتى ينطلق كالسهم هازئا من غفلتهم، وانطلاء الحيلة عليهم، وفي ذات يوم أدركه الغرق فصاح: الخلاص فقال الناس: لايزال هذا الغلام يهزأ بنا ويكذب علينا فتركوه ولم ينجدوه وهو أحوج ما يكون إلى النجدة، وغرق ضحية كذبه.

الرجل الذى كان إذا غاضبته زوجته صاح: الحريق! الحريق، فيستيقظ الناس من نومهم ويهبون لإطفاء الحريق! فيجدونه قد غاضبته زوجته وهو يطلبهم بهذه الحيلة ليصلحوا بينهما، وفي ذات ليلة شبت النار في منزله فصاح: الحريق! الحريق، فقال الناس: لايزال هذا الرجل يوقظنا من نومنا لإطفاء ما عنده من حريق، فإذا ذهبنا لم نجد حريقا وإنما نجده قد غاضب زوجته

ونصلح بينهما ، لايزال يوقظنا من نومنا ، ولا يدعنا ننام ، وتركوه فأتت النار على بيته وعلى متاعه ، وكان ذلك لما اعتاد من كذب . ويظهر أن العالم لم يستفد من هذه الحكمة : مع تكرارها وأخذها فى السن المبكرة ، فنقض العهود والمواثيق ، واستهان بها ، وجعلها قصاصات ورق لا تساوى الحبر الذى كتبت به ، ففقد الناس الثقة بعضهم ببعض وهم أحوج ما يكونون إليها ، وألزم ما تكون لهم .

كنا نخاف على البشر من الصواعق والعواصف ، ومن البراكين والزلازل ، ومن رجوم السماء ، وطغيان البحار والأنهار وثوران الطبيعة ، وكنا نخاف على البشر من الوحوش الضارية ، والسباع العاوية ، وكنا نخاف عليهم من الجراثيم الضارة ، والأمراض الفتاكة ، والحميات والطواعين ، وما كنا نخاف عليهم من أنفسهم التى بين جنوبهم فمرت المخوفات والمحذورات لم تنكهم ولقينا ما لم نحذر ، فهل يصدق علينا قول الشاعر :

أخشى على أربد الحتوف ولا
ارهب نوء السماك والأسد

وقول الشاعر :

وحذرت من امر فمر بجانبى
لم ينكنى ولقيت ما لم احذر

وقول الشاعر:

لو أنني أوفى التجارب حقها

فيما ارت لرجوت ما اخشاه

أو لخشيت ما أرجوه، لتكون نصا في موضوعنا.

ذكرت الصحف الخبر الآتي:

دلاس - تكساس في ١٩ ـ ى.ب.أ

«قبض رجال البوليس هنا اليوم على سائق سيارة، لأنه خالف إشارة المرور، ثم اتضح أن هذا السائق هو «كلود ايترلى» الطيار الأمريكي الذى اشترك في عملية إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وهرب يوم ٢٢ نوفمبر الماضي من المستشفى حيث كان يعالج من مرض عقلي نتيجة لشعوره بالإثم الذى اشترك في ارتكابه»!

ليس بغريب أن يدرك هذا الطيار هول ما أتى فيختلط عقله ويصيبه ما أصابه من جراء وخز الضمير وحساب النفس والحكم عليها وتأنيبها، إنما الغريب ألا يكون مثل هذا في رؤسائه الذين أمروه الأمر الأول، فمن بعده إلى أن وصل إليه؛ لم يدرك أحد من هؤلاء هول ما أقدم عليه من قتل مئات الألوف من الأبرياء الآمنين، من الشيوخ والشباب والصبيان، ومن تخريب المباني وإهلاك الحرث والنسل.

لم يدرك أحد من هؤلاء هول ما أقدم عليه ويرى جريمته البشعة، ويتصور هذه الضحايا البريئة تلاحقه في كل مكان وعلى كل حال في يقظته وفي نومه وفي عمله، وفي سمره وفي خلوته، وفي جلوته، تقول له: أيها القاتل الأثيم، علام قتلتنا وسلبت أرواحنا وحرمتنا حق الحياة؟ ويقول له الأحياء المعذبون من جراء الإشعاع: علام عذبتنا وحرمتنا الراحة من الأوجاع والآلام؟!

لم يفكر أحد منهم في هذا وأمثاله فيخزه ضميره، وتحاسبه نفسه فتقضي عليه أنه مذنب وأي مذنب، ويحاول أن يكفر عما اقترف بتحريم القنبلة الذرية وإعدام ما وجد منها وإنها لكفارة عظيمة عن ذلك الذنب العظيم.

يألم المنفذ ولا يألم الآمر، ويعذب الأول ضميره ولا يعذب الثاني ضميره مع أن الآمر أشد جرما، إذ الثاني قد فقد الاختيار، لأنه لو لم ينفذ لحوكم وأعدم، أما الأول فمازال بيده زمام أمره، وله الحرية كل الحرية والاختيار - أما الثاني فلم يحي ضميره ولم يلن له قلب كالحجارة أو أشد قسوة:

﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ ﴾[1].

---

(١) البقرة (٧٤)

مازال باب التوبة مفتوحا، ومازلنا نؤمن بكرم الإنسان وطيب عنصره، والجرم العظيم لا يكفره إلا خير عظيم، ينقذ البشرية ويخفف آلامها وأوجاعها.

وفى يد هؤلاء الذين قتلوا مئات الألوف فى هيروشيما ونجازاكى فى ليلة واحدة، أن يكفروا عن هذا الإثم العظيم بحسنة أعظم منه، وهى إبادة القنابل الذرية وتحريم تجاربها وبذلك ينقذون البشرية من الفناء، إنهم إن فعلوا ذلك كفروا عن سيئاتهم، والحسنات يذهبن السيئات.

هل التعدى فى الإنسان طبيعى؟

لقد رأينا الإنسان غليظ الطبع، قاسى القلب، مفترسا كالسباع والوحوش، بل أين منه افتراس السباع والوحوش؟!

إن السباع تفترس في الحين بعد الحين فريسة أو فريستين، أما الإنسان فيفترس الألوف والملايين والمدن والممالك ولا يشفق على فرائسه ولا يؤنبه ضمير، بل ربما فرح بذلك والتذ كما يلتذ السبع بلطع الدم وافتراس الفرائس، فهل الافتراس فى الإنسان طبيعة؟ وهل التعدى شيمة؟ فإذا كان كذلك ضاع الأمل فى استئناسه، وكانت محاولة نزع الافتراس منه كمحاولة نزع الافتراس من الأسد الكاسر والوحش الضارى، وكان الأمل فى نجاة الإنسانية مما هى فيه أملا خائبا، وكان السعى فى ذلك سعيا ضائعا.

لا إن التعدى ليس طبيعيا فى الإنسان، ولا التوحش غريزة فيه، لأنه لو كان كذلك لما تخلف، ولكننا نراه يتخلف فيرحم ويشفق حتى يكاد يذوب رقة ورحمة، ويبكى مصائب الإنسان، ويتألم لمصرعه أو نزول العذاب به! وقد تتعدى رحمة الإنسان إلى الحيوان فيرحم الحيوان الأعجم، ويشفق على صغار الطير وضعاف الحيوان كالمجتمعات الدينية التى تمكن الدين من

قلوبهم والطوائف الصوفية، حتى يقول بعضهم: «لو أحسنت إلى كل ما حولك ثم كانت دجاجة عندك لم تحسن إليها، لم تكن من المحسنين».

ومنهم من يشفق على النبات فيكره قطع الزرع، وحرق النبات، ويشفق على الزهرة الناضرة أن تقطف من غصنها وعلى الوردة الباسمة أن تقطع من منبتها.

ومنهم من يرى نظر جمله إليه شكوى من سراه:

شكا إليَّ جملي طول السرى
صبر جميل فكلانا مبتلى

ومنهم من يرى حمحمة فرسه شكوى وبكاء:

وأزور من وقع القنا بلبانه
وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي

ومنهم من يرى أن تغريد الحمائم، وترنيم البلابل بكاء على إلف مفارق، وعيش ناعم، مضى وانقضى:

رب ورقاء هتوف بالضحى
ذات شجو صدحت في فنن

ذكـرت إلفـا وعـيـشـا نـاعـمـا

فـبكت حـزنا فـهـاجت حـزنى

فـبكائى ربما أرقـهـا

وبـكـاهـا ربمـا أرقـنـى

ولقـد تبكى فـمـا افـهـمـهـا

ولقـد ابكي فـمـا تفـهـمنى

غـيـر انى بالجـوى اعـرفـهـا

وهى ايضـا بالجـوى تعـرفنى

والمرء حين يقيس الحيوان لنفسه فيراه يحس ويتألم يرحمه ويعطف عليه.

ما أعظم التفاوت في الإنسانية! وما أعظم التفاوت بين الإنسان والإنسان! بينما ترى هذا رحيما يرحم الإنسان ويشفق عليه أن يحل به مكروه، إذ ترى هذا يفرح بشقاء الآخرين ويتسلى بأحزانهم!

وقد ذكرنا هذا الطرف الأقصى في الشدة والغلظة، وسنذكر الطرف الآخر في الرقة والرحمة واللين، ليتميز الطرف الأول وبضدها تتميز الأشياء.

يذكر التاريخ الإسلامي الفيلسوف المعروف «أبا العلاء

المعرى» وأنه كان عظيم الرقة، كثير الرحمة، حتى شمل الحيوان الأعجم برحمته، فقد ساءه أن يضرب المرء البعير ويحمله ما لا يطيق:

وقد ساءنى مغدى الفقير بجهله
على العير ضربا ساء ما يتقلد

يكلفه ما لا يطيق فإن ونى
أحال على ذى فترة يتجلد

وقد تودد إلى الحمامة وأشفق عليها، وبين لها أنه لا يغاديها مخاتلا ولكنه يغاديها مكرما، وينصحها أن تحذر الإنسان أكثر مما تحذر الصقر فإنه يصوغ لها قلادة من الدم:

لك النصح منى لا أغاديك خاتلا
بكره ولكنى أغاديك مكرما

إذا ما حذرت الصقر يوما فحاذرى
أخا الإنس أياما وإن كان محرما

يصوغ لك الغادى قلادة هالك
من الدم تخبى وجدك المتضرما

وقد نهى الإنسان أن يعجل ذبيحته فيأخذ القطعة من لحمها وهى تختلج وتعالج سكرات الموت فيزيدها ألما على ألم!

رَوِّح ذبيحك لا تُعجله ميتته

فتأخذ النحض منه وهو يختلج

وقد نهى حتى عن مطاردة الوحوش:

لا تطرد الوحش فما يلبث

المطرود في الدنيا ولا الطارد

وقد بكى الطير ترميه الإنس بالأحجار فيكسرون عظامه ويهيضون جناحه لهوا منهم ولعبا، أو ينصبون له الحبالة فيظل يتخبط فيها كأنه مكتوف أوثق فلا يستطيع حراكا وأنه يبكر يبغي المعاش فيبكرونه بالموت وقص الريش ونتفه، ثم تحسر على هذه الحياة النضرة التي كان يتمتع بها فيأخذها منه الإنسان بغير حق وكانت مليئة بالهتاف على الغصون والغناء في الجنان:

وابك على طائر رماه فتى

لاه فأوهى بفهره الكتفا

أو صادفته حبالة نصبت

فظل فيها كأنما كتفا

بكر يبغي المعاش مجتهدا

فقص عند الشروق أو نتفا

كــــأنما فى الحــــيـــاة لم يفـــرع

الـغـصـن فــغـنى عـليــه أو هـتـفـــا

ويطول بنا الحديث إذا استقصينا كلامه فى الرفق بالحيوان والنهى عن إيذائه وذبحه وأخذ صوفه ولبنه وبيضه وعسله، وكل ذلك يدل على أنه بلغ المبالغ كلها فى الرفق والرحمة.

فقارن هذا بهؤلاء الساسة الذين لا يرحمون الملايين ولا يرأفون بالبشرية ولا يتأثرون من تقطيع أوصالها، وأزهاق أرواحها وفناء النوع الإنسانى!!

وقد عاب البشر وفضل عليهم الحيوان لهذه الوحشية:

ســـــبــــبت بالكلب فــــأنكرته

والكلـب خـــيـــــر منك إذ ينبح

***

خــيــر من الظالم الجبـار شـيـمـتـه

ظلم وحــيف ـ ظليم يرتعى الذُّبحــا

ورأى أن الحيوان أقل شرا ومرزية من البشر المستولين عليها، فالحمار المركوب أقل شرا من الإنسان راكبه، والحيوان المذبوح أقل شرا من ذابحه:

أقل شـــــرا منهم ومــــــرزيـة

مـا ركـبـوا فى السرى ومـا ذبحـوا

وازنوا بين هذا الفيلسوف الذى يفيض رحمة ويبكى على الحيوان المعذب الذى رماه غلام بحجر فكسر عظمه وهاض جناحه !

وهذا ناشيء من احترامه الحياة، فهو يحترمها حتى فى أحط مجاليها.

وازنوا بين هذا وبين الذين استهانوا بالحياة فى أرقى أنواعها فأمروا بضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية، فقتلوا مئات الألوف من البشر وكأنهم أنعام، أو أحط من الأنعام !!

ذكرنا هنا ما يفيد تأثيرا فى القلوب، أما الأدلة المنقولة عنهم والرد عليها فقد ذكرها الفارابى فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة، وقد لخصناها فى موضعها من كتابنا هذا فأغنى عن ذكرها هنا.

العالم بين الظلم والعدل

إن في العالم ظلما، وهذا الظلم أفضى بالعالم إلى هذا الوضع الذي وقفه على حافة بركان يوشك أن يثور، فيدمر سكانه من الإنس والحيوان والنبات، وربما يدمر أيضا الأرض التي يسكنها، وإن سبيلا تفضي بالعالم إلى خرابه ودماره، يجب ألا تسلك، وإذا كان العالم قد سار فيها شوطا بعيدا، وجب أن يرجع على عقبيه، وينهج سبيلا أخرى، سبيل العدل وما يتبعه من المحبة والرأفة والرحمة، ويجرب الإنسان حياة جديدة، ويستأنف سيرة أخرى.

لا يحتاج المرء في إثبات المقدمتين الأوليين إلا إلى سبر العالم واستقرائه، فيبرز إليه أن الأمم يتعدى بعضها على بعض، قويها على ضعيفها، ويتعدى الأفراد كذلك بعضهم على بعض، غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، وأن هذا قاد العالم إلى الحربين العالميتين الماضيتين، ويوشك أن يجره إلى الثالثة، وهي ثالثة الأثافي!

وأما أن ما يؤدي إلى هلاك الإنسان والحيوان والنبات وخراب العالم الأرضي فيجب أن يرفض - فربما يعترض عليه بأن من المذاهب الفلسفية القديمة ما يرى أن الوجود شر، وأن العدم خير، فكل ما

يؤدى إلى الفناء فهو خير - ونحن نجيب عن ذلك حتى لا ندع عرقا ينبض بالداء إلا كويناه، ولا محلا للشبهة إلا استقصيناه فنقول:

إن الفلاسفة الأقدمين ناقشوا هذا المذهب مناقشة عقلية، ونحن يكفينا هنا أن نقول: إن العالم كله يجرى على خلاف هذا المذهب، ويعمل على نقيضه، ألا ترى العلماء يبذلون أعمارهم فى البحث عما يزيل الأمراض والعلل عن أفراد الإنسان وما يزيد فى رفاهيتهم، فكم بذل من جهد فى استكشاف جراثيم الأمراض وكيف تتقى، وكم بذل من جهد وعمر فى معرفة أسباب الطاعون والهواء الأصفر من الكولرا - تلك الأوبئة المبيدة التى كانت تهلك العدد الكثير من الناس! وإن الناس ليحمدونهم. ويثنون عليهم، ويرونهم أدوا جميلا للإنسانية لا ينسى، ويرون أن عملهم خالد باق، ويفضلونهم على الغزاة والفاتحين، ويرون أن غزوهم وفتحهم أعمال صبيانية ليست شيئا يذكر بجانب ما يبذله العلماء فى المحافظة على وجود الأفراد وجعله وجودا قويا كاملا، فهل يعقل أن يحافظ على وجود فرد ثم يسمح بإبادة الجماعة، بل بإبادة الإنسانية واستئصالها؟ وهل يثنى على من سهل البقاء لأفراد الناس، ولا يثنى على من حمى الإنسانية كلها من الفناء والزوال!

وإن الناس ليكونون متناقضين حين يقعون فى هذه الورطة المحافظ على وجود الفرد من الناس، وعد هذه المحافظة خيرا

ونعمة وإبادة النوع الإنسانى بأجمعه وعده خيرا ونعمة !!

أيها الزعماء والقادة الذين ملكوا زمام الإنسانية روضوا أنفسكم وأممكم على العدل وبثه بين الأمم والأفراد، ورياضة الناس عليه ومحاربة الظلم والفساد، ورياضة الناس على كراهيته.

لا تقولوا: إن الظلم من شيم النفوس وطبائعها، فمن يسعى لمحوه فهو يضرب فى حديد بارد، أو يتطلب فى الماء جذوة نار.

فإنا نرى والعالمون بأحوال النفوس يرون أن النفس الإنسانية يمكن أن تتشكل وتتحول، وأنه يمكن أن يربى المرء على القناعة والرضا بما كفى، وعدم التطلع إلى ما زاد على حاجته وحاجة من يعول، وإننا نرى مجتمعات قد تحولت من مجتمعات فردية إلى مجتمعات اشتراكية، ومن مجتمعات متنافسة إلى مجتمعات متعاونة.

وقد يرون فى ذلك غضاضة فى أول الأمر ثم يعتادون:

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

وإن الجيل الذى بعدهم سيكون أرضى وأقبل، وأدخل فى ذلك وأوغل، لأنه نشأ عليه الصغير، ومات عليه الكبير.

هلموا ولا تترددوا فالظلم ظلمات وغول يغتال الإنسانية، والعدل نور ورحمة وحياة للبشرية.

تفـــاؤل

إن من الأمراض البدنية أمراضا لا شفاء منها ، فهى تمسك بالمريض وتلح عليه حتى تهلكه ، كداء الرئة والسرطان . ومنها ما يكون منه الشفاء والبرء ، فهل داء التعدى والطمع من قبيل الأول ، أو من قبيل الثاني ؟

إننا لما نراه من تشبث الدول العظمى بأطمعها ومضيها فى سبيل التسلح ، وعدم الإصاخة لصوت العقل الداعى إلى السلام ـ نكاد نؤمن بأن الطمع والتعدى من قبيل المرض الأول ، وأنهما من الأمراض المستعصية ، وأنهما لا يزالان بالبشرية حتى يوديا بها ، وهذه نتيجة حتمية لا فكاك منها .

ولكننا من الجهة المقابلة نرى أن للتاريخ أحكاما تتماثل وتتشابه وأننا إذا استضأنا بهذه الحقيقة رأينا رجال المال قد جردوا من فضول أموالهم الفاحشة في معظم دول العالم : إما بالضرائب التصاعدية ، وإما بالتأميم والاشتراكية ، وأن الأمم الغنية فى مجموع سكان الأرض كالأفراد الأغنياء فى الأمة الواحدة ، وقد جرد هؤلاء من فضول أموالهم ، فإذا مشت الدورة التاريخية فى اتجاهها واطرد المقياس ، فستجرد الأمم الغنية من هذا الغنى الفاحش ، وتتنازل الأمم عن أطماعها وتعديها ، وتنجو

البشرية من الفناء.

إننى من المتفائلين وأميل إلى هذا الرأى الأخير، وأرى أن البشرية فى طريق التقدم، وفى طريق التخلى عن نقائصها ورذائلها: إما بالعقل والتفهم، وإما بإلجاءٍ وقارعةٍ تحل بها، ترى أن لا منجاة منها إلا بالتخلى عن الرذيلة التى كانت سبب هذه القارعة.

وستتخلى البشرية عن التعدى والطمع؛ لتتفادى الحرب النووية.

هل لهذا الصراع وجه آخر؟

لعل قائلا يقول: إن ما ذكرت من تاريخ الصراع بين البشر، واستنتجت منه أن التعدى والطمع هما اللذان أوفيا بالبشر على هذا المصير، إنما يصدق على الحربين العالميتين الماضيتين، فألمانيا حقا كانت تطلب المجال الحيوى، وكانت تطلب نصيبها في المستعمرات. وتستكثر على بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال ما نالوا من الأرض والسكان في أفريقيا وآسيا وأمريكا.

أما الأمر في الحاضر فليس كذلك، لأن النزاع بين الغرب وروسيا، وروسيا شاسعة الأرجاء، مترامية الأطراف لا تطالب بمجال حيوى. وإنما النزاع في ظاهره صراع عقدىّ، فروسيا اعتنقت الشيوعية في الأموال، وهو مذهب «كارل ماركس» وهو كدين جديد يحمل مقومات الدين من التبشير به لأمم الأرض، فإن الروس لا يرضون بالشيوعية أن تكون نظاما لهم فحسب، بل يريدون بثها في أهل الأرض، لأنهم يعتقدون أن لا أمان لهم إلا ببلشفة أهل الأرض، فالنزاع عقدى، أى نزاع على عقيدة. فقوم يعتقدونها ويدعون إليها، وقوم لا يؤمنون بها، ويدفعونها عنهم، ويحافظون على الموروث من عقائد، ونظم

فى الحياة وتقاليد، فقد خرجت المسألة الآن عن طمع فى الأموال والمستعمرات، وتعدٍّ عليها أو على من ملكها قبلهم، إلى نزاع على العقيدة، كما كان عند انتشار الإسلام والدعوة إليه، وكما كان فى المسيحية، فلم يتم لك ما أردت من بيان أن الطمع والتعدى هما سبب مصائب البشرية، وهما اللذان أديا إلى نشوء القنبلة الذرية، ووقفا العالم على شفا الهلاك.

قلنا: إننا سلكنا تلك السبيل، لنبين نشوء القنبلة الذرية، وأى العوامل أنتجها، وفى الحق أنها نشأت فى الصراع بين ألمانيا واليابان من طرف، وبين بريطانيا وفرنسا وأمريكا من طرف آخر، هذا لاشك فيه ولاجدال، فقد استعملت القنبلة الذرية فى نهاية الحرب العالمية الثانية، وضربت فى هيروشيما ونجازاكى من بلاد اليابان، وهى التى قضت على مقاومة اليابان، وبها انتهت الحرب. وطبيعة الحرب العالمية الثانية كانت، كما ذكرنا، من الطمع والتعدى.

وقد بقى علينا أن نبين أن الصراع بين روسيا والغرب الآن ليس صراعا عقديا كما يبدو فى ظاهره، وإنما هو صراع منشؤه التعدى والطمع، كالصراع بين ألمانيا وبريطانيا وأمريكا.

إن الصراع بين روسيا والغرب هو استمرار للصراع القديم الذى كان بينهما، ذلك الصراع الذى كان منه حرب «نابليون» لروسيا، ودخوله بلادها، وتوغله فيها، ولم يرده إلا دخول

الشتاء ببرده القارس، ولذلك قيل: لقد هزم «نابليون» في روسيا مارشال اسمه البرد، والذي كان منه حرب ألمانيا في الحرب الأولى والحرب الثانية.

لقد غزا الغرب روسيا غزوات يذكرها التاريخ، ففي القرن الثالث عشر والرابع عشر اقتطع الغرب الأطراف الغربية من الإمبراطورية الروسية في روسيا البيضاء وفي أكرانيا، ولم تستطع روسيا أن ترد هذه الأملاك الشاسعة إلا في سنة ١٩٤٥، ولقد تمكن البولنديون من احتلال موسكو لمدة عامين، وتمكن السويديون من أن يحرموا روسيا منفذها على البحر البلطيقي عند رأس الخليج الفنلندي.

وكانت هذه الحروب القديمة حروبا سداها الطمع ولحمتها التعدي فهذا الصراع الآن استمرار لذلك الصراع، إلا أن الصراع العتيد دخلت فيه روسيا بعدة معنوية جديدة، وهي العقيدة الشيوعية وهي قوة معنوية لا يستهان بها فظن بعض الناس لذلك أنها حرب عقدية.

مجمل تاريخ الصراع العالمي

إننا نريد أن نضع اليد على سير البشرية منذ القدم إلى الآن، والعوامل التي سيطرت عليها، ووجهت التاريخ إلى الاتجاهات التي اتجه إليها ونأخذ في كل ذلك بمعاقد الحركات العامة ونسير في الإجمال دون التفاصيل، لأن التفاصيل تحتاج إلى أسفار ضخمة، وهي من شأن مؤرخي الحوادث، لا من شأن المصلحين الذين يريدون أن يعرفوا موضع الداء ليعالجوه، وموضع الانحراف ليردوا البشرية عنه، وبدون ذلك لا يمكن الإصلاح، ويكون من يحاوله كمن يسير في الظلماء، ويخبط خبط عشواء.

إن هذا يفرض على من يحاوله أن يدرس تاريخ البشرية بإمعان، باحثا عن علل الحوادث وأسبابها، ضاربا صفحا عما يبدو علة وليس بعلة، وما يجعله المؤرخون سببا وليس من الأسباب في شيء، وأن ينظر في ذلك كله إلى معاقد الحوادث، ولا يشغل بالتفصيل والجزئيات لئلا تشغله عما هو بصدده.

إن العالم القديم كان يسيطر عليه اليونان والرومان، فكانت ممتلكاتهم في الشرق والغرب في أوروبا وآسيا وأفريقيا، في شواطئ البحر الأبيض المتوسط مصر وسوريا وليبيا وتونس

والجزائر ومراكش. وقد بلغ الإسكندر من حكام اليونان مغرب الشمس ومطلعها وكان يخضع كل هذه الممالك التي كانت في طريقه، وظلت محكومة لخلفائه الذين جاءوا من بعده من اليونان والرومان.

ظل اليونان والرومان حاكمين لا يغلبون، وظلوا مسيطرين لا يقهرون.

ظلوا مسيطرين على الدنيا القديمة، حتى جاء الإسلام، وآمن به العرب، ونفخ فيهم روحا جديدة، وحياة جديدة، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا. هم شهداء على الناس، يزنون أعمالهم ويحكمون عليها، ويردونهم من الشر إلى الخير، ومن الخطأ إلى الصواب، والرسول ﷺ له هذه الولاية عليهم فاندفعوا على الدنيا ففتحوها، وعلى ملك اليونان والرومان فانتزعوه من أيديهم، وسيطر العرب المسلمون على ذلك كله.

ولكن اليونان والرومان والغرب لم يسكتوا على ذلك، فأرادوا غزو الإسلام في عقر داره واسترداد ما ملكه المسلمون من أرض شاسعة وممالك واسعة، فكانت الحروب الصليبية.

وكانوا ينجحون نجاحا جزئيا بامتلاك شواطئ سوريا

وفلسطين بعض الوقت ثم تسترد منهم، ثم انتهت أخيرا بالفشل، وارتدادهم عن بلاد الشرق والإسلام، ولكن كان ذلك إلى وقت في أعمار الأمم قصير، ثم عاودوا الغزو ولكن بأسلوب آخر.

تقوى الغرب في أسلحته، وابتكر أسلحة جديدة، وبقي الشرق على أسلحته القديمة فكانت الغلبة للسلاح الأقوى، السلاح الجديد.

تملك الغرب بلاد الشرق الأوسط، بل بلاد الشرق الأقصى، واستراليا، وأفريقيا، وأمريكا أيضا وأصبح صاحب القوة والنفوذ والسلطان، وحكمها بالقهر والغلب والشدة والعنف، فكان يكبح جامحها، ويرد ثائرها، ويبطش بالتململين.

ثم قامت الحرب الأولى والثانية نزاعا بين الأقوياء بعضهم وبعض، على أنصبائهم في البلاد المستعمرة، فكانت ألمانيا ترى أنها أخذت من المستعمرات النصيب البخس، وأنها لم تأخذ على قدر قوتها وعددها، وكتب على ألمانيا أن تنهزم في الحربين، وكانت روسيا مع الغرب الفريق الغالب، ولكنها فوجئت بأن الغرب اخترع في أواخر الحرب القنبلة الذرية فألقى قنبلتين على نجازاكي وهيروشيما من بلاد اليابان فدمرتاهما في زمن وجيز، فجثت اليابان على ركبتيها طالبة الصلح فتم، وكسب الغرب الحرب الأخيرة.

ولكن امتلاك الغرب لهذا السلاح الرهيب أذهل روسيا وأخافها ؛ لأن لها تجارب مريرة ماضية مع الغرب.

ثبت إذن أن الرومان واليونان والغرب هم العنصر المهاجم في الصراع العالمي، وأنه هو البادىء بالصراع في أنحاء العالم لا يصده بعد الدار، ولا تباعد الأقطار، عنصر حبب إليه الاستيلاء، وزين له الاستعلاء، وفتنة حب الشراء، فهو يهاجم افريقيا وآسيا وأمريكا واستراليا، ويملك فرغانة وغانة، وشتان ما بين فرغانة وغانة، ولم يهاجم الغرب ويغلب إلا مرة واحدة في التاريخ، حين هاجمه الإسلام وسلبه مستعمراته في غرب آسيا وجنوب البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن ذلك بجيش افضل من جيش، ولا بسلاح أمضى من سلاح، وإنما كان ذلك بتعبئة روحية، وقوة أخلاقية، ونظام عادل رفيق سوى بين البشر، وأنقذ الضعفاء من أسر الأقوياء، تعبئة نفسية لم يستطع أن يقوم بها غير نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام.

وقد أراد الغرب استرداد ملكه، والانتقام من عدوه، فقامت الحروب الصليبية، واستمرت مائتي سنة، فلم يظفر، ورجع خائباً بعد أن طوّف ما طوف ؛ وبعد أن أبعد الشقة، وأوغل في المسير، لأن هذه التعبئة الروحية كانت لاتزال فيها جذوة ترد عادية المعتدى، وإغارة المغير، ولم يظفر الغرب بالنصر والاستيلاء على الشرق الأوسط وبلاد الإسلام في القرن التاسع

عشر والعشرين إلا بعد أن خمدت هذه التعبئة الروحية، وأضحت رماداً!

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحى غير نسائها

ما الذى جعل اليونان والرومان وأم الغرب أمما مصارعة مكافحة، وعلى هذا القدر العظيم من الصراع والكفاح!

فهم بدءوا بالصراع فى العالم القديم حتى ملكوا معظم بلاد الشرق، وهم بدءوا بالصراع فى القرون الوسطى فى الحروب الصليبية، وهم بدءوا بالصراع فى التاريخ القريب والعصور الحديثة، واستعمروا بلاداً شاسعة وأملاكا واسعة، فى أمريكا الشمالية والجنوبية وآسيا واستراليا وافريقيا.

الذى جعلهم كذلك ـ فيما نظن ـ التربية الإسبرطية.

كانت إسبرطة أمة محاربة، وكانت تعنى بقوة الجسد وبما يؤدى إلى هذه القوة من الرياضة البدنية، حتى إنهم كانوا يلقون أبناءهم بعد ولادتهم فى أعلى قمة فى الجبل ليلة كاملة، حتى إذا قاوموا قسوة الطبيعة وظلوا أحياء أثبتوا أحقيتهم فى الحياة وأنهم أقوياء يستطيعون أن يقوموا بالتزاماتهم فى صراع الوجود.

وكان لهذه التربية فى إسبرطة قوانينها وفلسفتها والمرغبات

فيها ، وعم ذلك كل اليونان والرومان ، وورثه عنهم الغرب ، وأصبح ذلك نسيجاً عقلياً يتوارثونه ، حتى إن الديانة المسيحية التى جاءتهم بالرحمة والمحبة والتسامح لم تؤثر فى ذلك النسيج ، وظلت مسيحية الغرب تختلف عن مسيحية الشرق ، فالشرق يأخذ المسيحية بحذافيرها بما فيها من رحمة وتسامح ومحبة ، حتى من ضربك على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر ، ومن سخرك ميلا فسر معه ميلين.

أما الغرب فالنسيج الذهنى له مختلط : فبعضه يرجع إلى المسيحية وبعضه يرجع إلى الروح الإسبرطية وهو عنصر القسوة والصلابة والصراع والغلب.

لقد عاد هذا الصراع ولكن بين من؟!

بين الغرب أيضاً وروسيا التى هى إحدى صرعاه فى القديم والحديث مراراً وتكراراً . اتحدت روسيا مع الغرب فى الحرب الأخيرة ريثما قضوا على العدو المشترك «ألمانيا».

ثم عاد الأمر إلى ما كان عليه من استعداد للحرب . فأخذت روسيا فى تقوية سلاحها حتى أنتجت القنبلة الذرية كما أنتجها الغرب من قبل ، وأنتجت قنبلة قوتها مائة مليون طن من المتفجرات ، وقدر العلماء أن عند كل من الفريقين من القنابل الذرية ما هو كفيل بتدمير خصمه وتدمير البشرية أيضا !

والآن لم يعد الصراع مشروعاً بوجه ما، لم يعد مباراة لاعبين، فمن ظفر باركه الناس، وباركه خصمه اللاعب معه أيضا، وإنما عاد انتحاراً للمتصارعين ولبني الإنسان جميعا، وليس الوقت وقت: لاعبني، إنما هو وقت: أنقذني.

إن «كارل ماركس» لم يكن من غرضه أن يديل الشرق من الغرب، وإنما أن يديل الضعفاء من الأقوياء، والعمال من أرباب الأموال، فآخى لهم آخية لا يقطعها المهر الأرن، والتقطتها روسيا ولعبت بها ونجحت بعض النجاح، فغزت العالم بمبادئها، فكسبت شرق أوروبا، وكسبت الصين، وهي ستمائة مليون من البشر، وأيقظت المستعمرات في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وهاجت الساكنين، وشجعت الثائرين، وأعانت المستضعفين. ولكن الغرب بحنكته وبصره بالأمور ومسايرته للزمن سبق، فأعطى العمال ما يبغون، وأصبح العمال يوازنون بين العامل في الغرب والعامل في روسيا كان عليه أن يعمل ليلحق بالغرب في تقدمه وثروته، فبدا مرهقا وأقل نصيبا من الحياة، ولكن هذا الشوط من الصراع لم يسر في طريق غالب ومغلوب، وكاسب ومكسوب، وإنما سار في طريق انتحار وطريق فناء لبني الإنسان. وليس هو بحاجة إلى من يدخل فيدمر الغرب أو روسيا وإنما هو بحاجة لمن يدخل فينقذ الغرب وروسيا وينقذ معهما الحضارة والبشر، فهل يقوم بذلك الشرق

الأوسط الذى أنقذ العالم من اليونان والرومان فى القديم فينقذ اليوم اليونان والرومان والغرب وروسيا والبشر جميعا!

ليس العالم الآن بحاجة إلى من يدخل فى جانب أحد المتصارعين فيعينه ويقويه، ولا إلى من يزيد الحرب ضراما، والنار اشتعالا، ولا إلى من يخترع سلاحا أمضى، ومبدأً أقوى، إنما هو بحاجة إلى من ينقذ المتصارعين والناس جميعا.

إنه بحاجة إلى العالم الذى يعلم المذاهب المعاصرة المتصارعة، وبحاجة إلى من يعلم سر الصراع، وإلى من يعلم ما فى هذه المذاهب من شطط ومغالاة، وأن هذا الشطط والمغالاة هو الذى أوقف العالم على شفا الهاوية!

بحاجة إلى من يعلم أن الصراع الآن بين الكم والكيف، أى بين الكثرة العددية من البشر وبين الامتياز، بين الكثرة التى قوتها فى كثرتها وبين الامتياز الذى قوته فى أخلاقه وعقله وتدبيره ومراسه وشجاعته ومجازفته، وأن غاية كل من هذا الصراع إبادة الآخر والتغلب عليه، فغاية الشيوعية انتصار البروليتاريا وإبادة أرباب الأموال، وغاية الكيف أن ينتصر على الكم، وأن يبقى له النفوذ والسيطرة القديمة.

إن هذه الغاية محال الآن أن تتحقق، فبعد ظهور القنبلة الذرية. وامتلاك الفريقين إياها لم يعد غالب ولا مغلوب، ولكن

الانتحار وانقراض البشر، فالواجب الآن أن يتنازل كل عن بعض غايته.

إنهم بحاجة إلى من يعلمهم أن من الظلم أن يرى المرء أو الجماعة أن الدنيا خلقت له وأنه أحق بالحياة، وأنه لا يجوز أن يعيش الآخر معه إلا ليكمل وجوده أو ليجعل وجوده أفضل، وأنه في سبيل ذلك يجوز له قتله واستعباده واستخدامه. هذا كله ظلم وتعد!

والعدل أن يعيش ويدع غيره يعيش، فالأرض خلقت للجميع، وخيراتها للجميع، فمن أراد احتكارها فهو ظالم، ومن أراد الاستبداد بها فهو ظالم، ومن أراد إزالة غيره من الوجود ليبقى هو فهو ظالم، وإذا استمر كلاهما في ظلمه وعلى آرائه ونهجه فالفناء للفريقين وللبشرية. فالواجب العدل، هذا أو الطوفان!

إن العالم بحاجة إلى من يؤمن بأن التعدى شر، وأن التعاون خير، وأن البشر لا يصلحون إلا على التعاون، وأن التعدى سار بالبشر إلى حافة الهاوية، وأنهم إن لم يقلعوا عنه فوراً نفذت فيهم نتيجته المحتومة، وحاقت بهم عاقبته الوخيمة، التى لا انفكاك منها ولا انفصام.

إنه يجب أن يرجعوا من أول الطريق، ويبنوا أعمالهم

ومصالحهم على التعاون لا على التعدى، وليس التعاون بين الأمة بعضها وبعض فحسب، بل التعاون الأعم الأشمل بين الأمم جميعا، وبين سكان المعمورة أجمعين

بهذا.. وبهذا وحده تكون النجاة.

إنه ينبغى أن يعلم أن التعدى إذا كان بالأمس قبل القنبلة الذرية شراً فهو الآن بعد القنبلة الذرية أعظم شراً وأشد نكرا، وأنه لا يوجد زمن الناس أحوج فيه إلى التعاون والعدل من هذا الزمن، وأنه حتم لابد منه، إنه ضرورة ليس عنها من محيص.

إنهم بحاجة إلى من يعلم المتنازعين أن الدنيا تتطور، وأنه بعد القنبلة قد تطورت وانقلبت المعايير رأسا على عقب، فما كان بالأمس مفخرة أصبح الآن أضحوكة، فالتهديد بالحرب أصبح الآن سخرية وأضحوكة، لأنه تهديد بالانتحار والفناء العام الشامل!

إنهم بحاجة إلى من يدلهم على حقارة الدنيا، وصغر شأنها، وأنها أحقر من أن يتعادى الناس فيها ويتفانوا، وتهلك البشرية من أجلها!

إنهم بحاجة إلى روحانية الشرق التى تفهم أن الشرور كلها جمعت فى بيت مفتاحه حب الدنيا، وأن الخير كله جمع فى بيت مفتاحه الزهد فيها.

إنهم بحاجة إلى ذلك، لا ليتخذوه مذهبا في الحياة، بل ليخفف من غلوائهم، ويحد من تكالبهم ومن صراعهم المخيف.

إنهم بحاجة إلى من ينبه ساسة العالم ورجال الحرب إلى أن الدنيا فيها أصوات رخيمة غير أصوات المدافع والقنابل، وأن فيها مناظر بهيجة غير منظر الدماء المصبوبة، والأشلاء المقطوعة، والمدن المخربة. وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير وصوت الفناء! وإن أبشع المناظر لمنظر الدماء والخراب، فما لهم يتركون كل جوانب الدنيا النيرة الزاهية، ويذهبون إلى الركن البشع الذميم!

بكاء الأرض بعد خرابها!

ماذا دهى الناس! وماذا أصابهم!!

إنهم يفعلون كما يفعل الحمقى الأغرار؛ بل كما يفعل البُله والمجانين!

إنهم يكيدون بعضهم بعضاً، وينصبون الحبائل ليقعوا فيها، أما ينظرون ماذا جنى أحدهما على صاحبه حتى يفنى عمره وماله فى ابتكار الوسائل لإهلاكه وتدمير حضارته؟!

أما كان الأجدر أن ينفق هذا الجهد والعمر والمال فى إسعاد البشر واكتساب عيش أرغد!

لقد دأب الناس من القديم علي ابتكار آلات الإهلاك والتدمير فابتكروا الرماح والسيوف والقسى، ثم ابتكروا المجانيق والقنابل، ثم ابتكروا حرب السموم.

وقد كان ذلك محتملا؛ لأن ضررها كان موضعياً ولم يكن عاما شاملا، ثم ابتكروا القنبلة الذرية، وهذا الهلاك الشامل، والبلاء المدمر، وقد فجرت قنبلتان من القنابل الذرية فى الحرب الماضية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي في اليابان فدمرتاهما وقتلتا مئات الآلاف، ومازال الإشعاع الذرى المتخلف منهما يهلك كثيرا من البشر إلى الآن:

ثم اخترعوا القنبلة الهيدروجينية وهى تعادل عشرين مليون طن من المتفجرات، وقد كانت القنبلة الذرية تعادل عشرين ألف طن، فهذه أقوى منها ألف مرة، وإذا كان فتك الأولى ما رأيناه وسمعنا، فكيف يكون فتك الثانية وقد تضاعفت قوتها ألف ضعف!

أى شقى ذلك الذى يطلق أول قنبلة ذرية على عدوه فيجيبه بإطلاق قنابله أيضاً، ويتبادل الفريقان إطلاق القنابل الذرية فإذا العامر خراب، وإذا البنيان قد سوى بالأرض هدماً وإحراقاً، وإذا البشر أموات لا يتحركون، والجثث فوق الجثث، والأشلاء فوق الأشلاء، وإذا المتحاربان أثر بعد عين، كأنما لم يكونا يتحاربان، بل ينتحران، وإذا الطامة تصيب من لم يكن من جناة الحرب كما أصابت من جناها، وإذا الأرض غير الأرض، وإذا هذا العمران الزاهر والحضارة الراقية قد صارا إلى عدم.

أهكذا بعد أن أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها - عمد ذلك المشئوم إلى فعلته هذه فإذا الأرض زرع حصيد وخراب يباب كأن لم تغن بالأمس، ولم يكن بها ديار ولا نافخ نار!!

أى مشئوم ذلك الذى لا يخص شئومه قوماً دون قوم، ولا بلداً دون بلد، بل يعم المشرقين كما يعم المغربين؟!.

لقد ضرب الناس مثلا للشؤم، عاقر ناقة صالح، وقد أدى فعله إلى خراب قبيلة من القبائل الكثيرة، وبلد واحد من بلاد اللّه الكثيرة، فما يكون مبلغه من الشؤم وضرره يعم السهل والجبل والبدو والحضر والقاصي والداني!!

وليس شؤم هذا بأكثر من شؤم أولئك الذين أنتجوا هذه المهلكات، وأعدوا هذه المبيدات، وأوقفوا العالم على حافة الهاوية الفاغرة فاها؛ لتبتلع الناس جميعاً، فإذا الحياة موت والعمران خراب، والوجود عدم!!

يا حسرتا على البشر! يا حسرتا على الإنسانية! يا مصيبتاه على هذا الخلق السويّ الذى ليس فى الحيوانات مثله، انتصاب قامة، وصباحة وجه، ورجاحة عقل، وقوة ابتكار، وسعة فكر؛ نظر نظرة فى النجوم، وأخرى فى التخوم، وثالثة فيما بين ذلك، فابتز أسرار ما هنالك، وعلم العلل والمعلومات، والأسباب والمسببات، والجليات والخفيات.

أيذهب ذلك كله فى لحظة ويبيد فى طرفة عين؟ ومن يفعل به ذلك هو نفسه، فتكون نفسه أعدى أعدائه وشر الأشرار عليه! فيكون كالشاة التى أراد صاحبها ذبحها. فلم يجد فتركها. فأخذت تبحث فى الأرض فأزاحت التراب فكشفت عن المدية فأخذها صاحبها وذبحها. فضربت العرب بها المثل وقالوا: كالباحث عن حتفه بظلفه. وقالوا فيمن يضر نفسه

بنفسه : كالجادع مارن أنفه !

أهكذا يكون مصير الإنسان العاقل المفكر المدبر العليم الخبير ! ويكون كمن قيل فيه :

ما يبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

لقد كان يخاف عليه في الماضي من الوحوش الكاسرة، والحيوانات المفترسة، فتغلب عليها بعقله، وطردها إلى الصحارى المقفرة، وإلى رءوس الجبال العالية.

وكان يخاف عليه من الحر والبرد فاتخذ من الجبال أكنانا، ثم بنى الدور والقصور، فإذا هو بمأمن من القيظ وعاديات البرد.

وقد كان من أعدائه رجوم السماء، والصواعق المحرقة، والرياح العاصفة، ومن أعدائه الزلازل والبراكين، فكان ضرر ذلك خاصاً غير عام، وعلى سبيل الندرة والشذوذ، فلم يكن يظن وقت نجا من أعدائه جميعاً بفضل عقله، أن يكون حتفه على يده هو، وذهاب نوعه بشؤم نفسه. ويكون عقله الذى نجاه هو الذى أهلكه، وفكره الذى ملكه الأرض وما عليها، هو الذى سلبه إياها أو سلبها إياه.

ليت شعرى، أتبقى الحرب المقبلة أحداً على الأرض حتى

يندب العلوم والحضارة والإنسان والعقل والتدبير ؛ أم لا تبقى أحداً فيذهب هذا كله دون أن يندبه نادب، أو يرثيه حزين كأن النوع البشرى وحضارته أحقر من أن يبكيه أحد ؟ !.

ويذهب غير مشيع ولا مبكى عليه

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾[1].

وكأنه إذ هان على نفسه فبخعها، هان على السماء والأرض والجبال والبحار والرياح، فلا السماء تبكى بدموع الغمام، ولا الريح تعول بصوت العاصفة، ولا البحار تندب بخرير المياه، ولا كرامة لدم ضيعه أهله !

كان العربى يبكى الديار إذا مر عليها فلم يجد بها أهلها، ويندب الأطلال والدمن ويقف بها طويلا وقوف شحيح ضاع فى التراب خاتمه، ويسائلها عمن كانوا بها وترحلوا عنها أين ذهبوا ! أشرقوا أم غربوا، أم دهاهم ريب المنون وأتت عليهم الحوادث، مع أنه كان يجد داراً بدار، وأهلا بأهل ! فماذا يكون إذا أبقت الطامة الكبرى إنسانا !.

إنه يبكيك كما بكى الديار ربيعة بن حزام، ويناديك : أيتها الأرض، أين سكانك الذين كانوا خير سكان ! أين جيرانك

---

(١) الددخان (٢٩)

الذين كانوا خير جيران! أين بنو الإنسان الذين كانوا نجوما فيك، تباهين بهم نجوم السماء؟ وكانوا علاء أرفع من الجوزاء، وكانوا بأحلامهم أرسخ من جبالك، وكانوا في السخاء أسخى من بحارك وأنهارك، وكانوا في الحلم وسعة الصدر أوسع من بيدائك، أين بنو الإنسان الذين كانوا أشرف سكانك، وأكرم قطانك، فلم نر على ظهرك من ميزوا بالعقل كما ميزوا، ومن شرفوا بالحكمة كما شرفوا!

إن كل ما على ظهرك لا تنفعه تجاربه، ولم يعط القياس والاستبصار، ولا العظة والاعتبار، فعاش مدة عمره أو مدة عمرك كما ولد، لم يتقدم خطوة ولم يرتق درجة، إلا هذا الإنسان الذى ميز بهذه المزايا الفكرية، فرقى نفسه، ورقى ما حوله، وعرف طبيعتك، وأسرار الرياح والأمطار والكواكب، وعرف أبعادها ولم يقسها، وأحجامها ولم يزنها، وخواصها ولم يلمسها، واكتشف البخار والكهرباء وانتفع بما اكتشف في تيسير حياته، فبعد أن كان يركب الحمير والجمال أصبح يركب القطار ويطير في السماء، وبعد أن كان لا يسمع إلا صوت القريب، أصبح يسمع صوت القريب والبعيد، فقد كان بأقصى المغرب يسمع من بأقصى المشرق، يسمع خطبهم ومحاضراتهم وأغانيهم، وموسيقاهم كأنهم بجانبه، تضمهم دار واحدة، ويجلسون تحت سقف واحد، وكفى بهذا فخراً لبنى الإنسان، وكفى بهذا امتيازا له عن سائر الحيوان.

لئن تمسي مهجورة الفناء، موحشة الأرجاء. لطالما أقام بك أمم بعد أمم، وعمرك أجيال بعد أجيال.

لئن أصبحت أطلالا دوارس، ورسوما بوالى، وعرصات بلاقع، لطالما كانت بك القصور المشيدة، والعمارات الشاهقة.

لئن أصبحت ميدان الرياح السافيات، لقد أصبحت ميدان الهموم الرائحات، والكروب الغاديات!

أيتها الأرض، إني أبكي سكانك بدموع الغمام، وأعول بأصوات الرعود حتى كادت تكلمني أحجارك، وتشفق عليّ جبالك، فلا تخبرين أين ذهبوا، وأى البلاد تيمموا؟

فإن لم تجبه حنق عليها، وهاج غضبه، وقال مع المتنبي:

ملث الغيث أعطشها ربوعاً
وإلا فاسقها السم النقيعا

أسائلها عن المتديريها
فلا تدرى ولا تذرى دموعا

أبكيك بالدموع الغزار، ولو بكيت على قدر عظم الخطب وعموم المصيبة لبكيتك دما!

أيتها الأرض كم انطويت على فتيان غر، وفتيات لدن، ووجوه كالصباح المشرق، والقمر المنير!!

تصور العدالة فى عصور اليونان

وعدت أن أبين تاريخ الآراء السبعية ومن اعتنقها أولا، وأسايرها فى عصورها المختلفة، وأبين من حاربها وفندها، ومن اعتنقها ودافع عنها، والحجج التى استند إليها كل فريق، وهذا أوان الوفاء بالوعد.

***

وما فى سطوة الأرباب عيب
وما فى ذلة العبدان عار

كنا نقرأ هذا البيت من أبيات المتنبى فنعجب، ونقول: إنه أخل بمقاييس الفضيلة والرذيلة، فنفى العيب عن الظلم والافتيات، ونفى العار عن ضعف العبدان وهوانهم. وكنا نقول: هى خطرة من وساوس الشعراء، لا تستند إلى مبدأ من رأى ولا أثارة من علم، وما كنا ندرى أن ذلك مذهب مدروس قال به بعض الفلاسفة ونصره بالدليل، ووقف يحامى عنه ويذود دونه، حتى قرأنا الجمهورية لأفلاطون، وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى، فرأينا العجب! رأينا هذا الرأى الذى تنكره بديهة العقل، مذهباً مدونا، اعتنقه طائفة من السوفسطائيين ونصروه، بما أعطوا من قوة فى الجدل، وذلاقة فى اللسان، حتى

اضطر أفلاطون أن يجرى على لسان سقراط الحجج التى تفنده والأدلة التى تفسده، وذلك فى الكتاب الأول «العدالة» من الجمهورية. وإنا نوصى الدارسين أن يقرءوا هذا الفصل الممتع من الجمهورية لأفلاطون.

لقد أجرى أفلاطون على لسان ثراسيماخس السوفسطائى نصرة الظلم والتعدى، وأجرى على لسان سقراط تفنيد هذه الحجج ونصرة العدل، بما أوتى من قوة فى البرهان، وبلاغة فى البيان.

وكنا نود أن نورد كتاب العدالة بنصه من الجمهورية، ولكن ذلك يطول، فاكتفينا بإيراد هذا المقدار من خلاصته التى فى كتاب الجمهورية.

حدد ثراسيماخس العدالة بأنها «منفعة الأقوى» وأسند تحديده إلى البرهان الآتى:

انتهاك حرمة الشريعة يحسب تعديا عند كل حكومة.

تسن الشرائع لصيانة مصلحة الحكومة.

الحكومة أقوى من الرعية.

والنتيجة أن العدالة هى مصلحة الأقوى أو «الحق للقوة».

فرد سقراط بأن الحكومة قد تخطىء فى سنها شرائع مضرة بمصلحتها. والعدالة فى رأى ثراسيماخس توجب على الرعية

إطاعة الشريعة فى كل حال، فإذاً: كثيراً ما تكون العدالة إضرار الرعية بمصلحة الحكومة: فتكون العدالة ضد مصلحة الأقوى، فلا يمكن قبول هذا الحد.

فهربا من هذه النتيجة تراجع ثراسيماخس عن موقفه هذا وقال: إن الحاكم اصطلاحا لا يغلط باعتبار حاكميته. فالحكومة كحكومة، تسن دائماً ما هو فى مصلحتها، وذلك ما توجب الشريعة على الرعية إطاعته. فأثبت سقراط فى رده أن كل فن، وبالجملة فن الحكم لا يتناول مصلحة أربابه أو الأعلى بل مصلحة المحكوم أو الأدنى. فاقتضب ثراسيماخس الكلام، محولا الموضوع إلى أن الحكام يعاملون الشعب معاملة الراعى قطيعه، فإنه يرعاه ويسمنه لمصلحته هو، فالتعدى أفضل، وأنفع كثيراً من العدالة.

فأصلح سقراط هذا القول، بأن الراعى لا يسمن المواشى لمصلحته الخاصة، وأخذ من قاعدة ثراسيماخس أن غرض الرعاية الخاص توخي مصلحة الرعية. زد على ذلك: كيف نعلل قبض الحاكم راتباً على عمله، إن لم يكن ذلك العمل لخير الشعب وليس لخيره؟ فكل فنى، بأدق معانى الكلام، يكافأ بفنه مكافأة غير مباشرة، ولكنه يكافأ مباشرة بما أسماه سقراط «فن الأجور»، وهذا يصحب غيره من أنواع المكافأة، ثم أعاد النظر فى القول: التعدى الكلى أنفع من العدالة التامة:

فاستخرج من فم ثراسيماخس الاعتراف بـ «أن العدالة فطرة صالحة» و«التعدى سياسة حسنة» وبالتالى سياسة حكيمة صالحة فعالة. فقاده سقراط بذلاقة لسانه إلى التسليم بما يأتي:

١- يحاول المتعدى خدعة العادل والظالم معاً، أما العادل فيقتصر على خدعة الظالم فقط.

٢- كل حصيف في فن، وهو صالح وحكيم، لا يحاول غلبة الحصيف بل غلبة الغبي.

٣- فلا يحاول الصالحون سبق أمثالهم، بل سبق الأغيار، فينتج من ذلك: أن العادل حكيم وصالح، والمتعدى شرير وجاهل.

وحينذاك تقدم سقراط لتبيان أن التعدى يلد النزاع والانقسام، أما العدالة فتؤدى إلى الاتساق والوئام، وأن التعدى يقضى على كل ميل إلى الاتحاد فى العمل، فى الأفراد وفى الجامعات. لذلك كان التعدى عنصر ضعف لا قوة.

وأخيراً أوضح سقراط أن النفس كالعين والأذن وغيرهما من الحواس، لها عمل أو وظيفة تتمها، ولها أيضا فضيلة بها تتمكن من ذلك الإتمام. وتلك الفضيلة فى النفس هى العدالة، فلا تستطيع النفس إتمام عملها إتماما حسناً دون سلامة فضيلتها، لذلك لا يمكن أن يكون التعدى أنفع من العدالة. مع

ذلك صرح سقراط أن هذه الحجج غير قاطعة، لأنه لم يتوصل بعد إلى اكتشاف طبيعة العدالة الحقيقية.

كنا نريد أن نكتب هذه الخلاصة لكتاب العدالة بأسلوب آخر، لعله بتعدد الأساليب يسهل فهم الموضوع، ولكننا رأينا ذلك يطول فاكتفينا بهذه الكلمة:

سر الخلاف أن ثراسيماخس نظر نظرة سطحية إلى العاجل فرأى المتعدى يفوز بأوفر نصيب، ويفوز برضا الأعوان، لأنه يسلطهم على أموال الناس، فهو فائز وفرح بما أوتى.

أما سقراط فنظر نظرة فاحص مدقق إلى العاجل والآجل، فرأى التعدى يؤدى إلى العداوة والبغضاء وإلى التخاذل، ورأى أن الجيش المتعدى لا يفوز - إذا فاز - بما فيه من عنصر التعدى، بل بما فيه من عنصر العدالة، لأنه إذا كان متعدياً كل التعدى، فيتعدى القواد على الجند، والجند بعضهم على بعض وعلى قوادهم، فيولد الحقد والكراهية والتخاذل، ويقضى على الميل إلى الاتحاد والتعاون فى العمل، وذلك يؤدى إلى الهزيمة لا إلى الانتصار.

أما العدالة فتؤدى إلى المحبة وإلى الوئام، وإلى الاتساق فى الأعمال. وذلك يؤدى إلى النجاح والانتصار.

***

الآن أيقنا أن العدل فضيلة وحكمة ونافع، وأن الظلم رذيلة وجهل وضار. ويجب على الحكام وقادة الدول والحكماء والعلماء أن يعلموا ذلك، ويروضوا أنفسهم على اعتناق العدل ومجافاة الظلم، فإن لم يقتنعوا كما اقتنعنا فليديموا البحث والنظر.

نحن نعلم أن الناس في هذا العصر يريدون أخذ الأمور من السهل القريب، ولا يريدونها من النِّيق البعيد، ويحبون ما صفا وسهل، ويكرهون ما تعقد وكدر، ويكرهون المشقة في المقدمات الطويلة واللوازم البعيدة.

وأحب أن يروضوا أنفسهم على البحث والنظر ولو في هذه المسألة، لأنها تبحث عن المبدأ الذي يعيش به البشر في هذه الحياة، وكيف يعامل الناس بعضهم بعضا، فإن استطالوا مع ذلك البحث فسأجعل لهم المسألة على طرف الثمام لا يكدون فيها ولا يتعبون، وإنما يأخذونها كأنما يغترفون من نهر جار بين أيديهم، وكأنما يجنون من غصن دان، وثمار متهدلة.

وكل ما دون في هذا الكتاب إنما هو في نصرة العدالة وخذلان الظلم.

***

هذه العدالة الميمونة النقيبة، المعقود بناصيتها الخير والأمن

والمحبة والسلام، قد آثر الناس عليها التعدى المشئوم المعقود به الخوف والخراب والفتن والحروب.

وهذا المذهب السوفسطائي القاضي بتفضيل التعدى على العدالة، قد اعتنقه أهل هذا العصر، وطرحوا مذهب الحكماء من أفلاطون وسقراط وأرسطوطاليس، مع أنهم أبانوا زيفه وفضحوه بالحجج الدامغة والبراهين النيرة، اعتنقوا هذا المذهب علماً وجروا عليه عملا، إلى أن وصل بهم إلى شفا الهاوية الفاغرة فاها لالتهام البشر أجمعين.

فياليت شعرى، أيلجون فى ضلالهم ويبقون متشبثين بالتعدى حتى يوردهم مورد المتعدين المحتوم، أم يراجع الناس أنفسهم فيرجع إليهم صوابهم، ويتنكبون سبيل التعدى، إلى صراط العدالة المستقيم؟

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج
طريقان شتى: مستقيم وأعوج

قد كان الناس يرتكبون الظلم وقلوبهم واجفة، لأنهم كانوا يرونه مؤدياً إلى الخراب والدمار، أما الآن فهم يرتكبونه وهم يرونه نافعاً وطبيعيا، وربما رأوه فضيلة، لأنهم أخذوا بشبه السوفسطائيين القدماء.

تصور العدالة فى عصور الإسلام

تكلمنا عن العدالة فى عصر اليونان، والآن نتكلم عنها فى عصور الإسلام.

لقد تسربت الأفكار السوفسطائية إلى من يسميهم الفارابى بأصحاب المدن الجاهلة، وكما وقف أفلاطون وسقراط مدافعين عن العدالة، وقف الفارابى مدافعاً عنها فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة، وسيتبين أن الآراء التى اكتشفها فلاسفة الغرب كانت معروفة فى العصور الإسلامية على أنها آراء منبوذة ومطروحة، حتى إن هذه الأفكار تسربت من محيط الفلاسفة إلى الجماهير.

معروف عن نيتشة أنه كان يرى أن الرحمة فضيلة المومس، وأنها ضعف فى الطبيعة، وهذا يذكرنا بما قرأناه فى تاريخ الدولة العباسية أن أحد وزرائها محمد بن عبدالملك الزيات كان قد صنع تنورا، وكان يحميه ويجعل فيه المسامير، ويدخل فيه خصومه الذين يظفر بهم من الوزراء والكتاب، فإذا استغاث أحدهم وقال الرحمة! قال له: الرحمة خور فى الطبيعة: ثم دار الدهر دورته وظفر خصومه به ووضعوه فى التنور الذى كان يعده لخصومه، فاستغاث وقال: الرحمة! فقيل له الرحمة خور فى الطبيعة!

فــلا تـعــجبن من سنة أنت ســرتـهــا

فـــاول راض سنة من يســـيـــرها

وهذا أوان الكلام عن رأى الفارابى، ورأى المدن الجاهلة:

***

الإنسان محتاج إلى الاجتماع والتعاون، لا يمكنه أن يعيش منفردا، لا يمكنه أن يحفظ وجوده، ولا أن يبلغ كماله متوحدا، ذلك لأنه محتاج إلى أشياء كثيرة، لا يمكنه أن يقوم بها وحده، فهو محتاج إلى الطعام لقوام حياته، ومحتاج إلى اللباس لرد عادية الحر والبرد؛ ومحتاج إلى المسكن، ليتقى به عاديات الضوارى، ولا يمكنه أن يقوم بهذا كله وحده، بل يحتاج إلى جماعة كثيرة متعاونة يقوم كل واحد بشيء من هذا، فيجتمع مما يقوم به جملة الجماعة، لكل واحد جميع ما يحتاج إليه فى قوامه، وإلى أن يبلغ كماله.

كل فرد محتاج لكل فرد، وكل فرد خادم لكل فرد، بينما هو يعطى إذا هو يأخذ، وبينما هو ينفع إذا هو ينتفع، وبينما هو خادم إذا هو مخدوم، وسيد إذا هو مسود.

هذه هى نقطة البدء والانطلاق عند الفارابى، اعتقدها فأثبت بها جميع آراء أهل المدينة الفاضلة، فى اختيار العدل ونبذ التعدى. وفيما ينبغى أن تكون عليه المجتمعات البشرية من

قواعد للسلوك. وأبطل بها آراء أهل المدن الضالة والجاهلة، من اصطفاء التعدى ونبذ العدالة.

وقد بسط الفارابى فى كتابه المدينة الفاضلة آراء أهل المدن الجاهلة والضالة، وأدلتهم التى يستندون إليها. ونحن نلخص دليلهم الذى يستندون إليه جميعا فنقول:

يقول أصحاب المدن الجاهلة: إننا نشاهد الموجودات تتنازع وتتقاتل، يثب هذا على ذلك، ويعدو ذلك على هذا، كأنما الدنيا ساحة حرب. وكل ما فيها يتقاتل ويتصارع، ويلتمس إبطال الآخر، فالأسد يعدو على الحمل وعلى الغزال، والسمك يأكل بعضه بعضا، ويعدو الكبير على الصغير والقوى على الضعيف، وكل موجود أعطى مع وجوده شيئا يحفظ به ذاته، وشيئا يقتدر به على غيره ويحوله إلى جسم شبيه به فى النوع، وهذه طبيعة الموجودات وفطرتها. وما تفعله الأجسام الطبيعية بطبائعها، هو ما ينبغى أن يفعله الحيوان المختار باختياره وإرادته.

وإذن فالإنسان الذى أعطى الاختيار والإرادة يجب أن يفعل باختياره وإرادته ما يفعله الأسد والذئب والضبع من افتراس، وما يفعله السمك من قتل بعضه بعضا وإبطال بعضه لوجود بعض، وما يفعل بالطبيعة ومجاراة لها هو العدل، وما يضاد الطبيعة ويناقضها هو الظلم، فالقوى إذا غلب الضعيف وقتله كان عدلا، وإذا استعبده واسترقه كان ذلك عدلا أيضا.

هذه خلاصة ما ذكره الفارابى من دليل أهل المدن الجاهلة فى العدل والظلم، وما ينبغى أن يكون عليه المجتمع البشرى فى معاملة بعضه بعضا، وهذا هو الناموس الذى ينبغى أن تبنى عليه قواعد السلوك الإنسانى.

ولم يحتج الفارابى إلى إبطال أدلتهم، لأنه أثبت فى المدينة الفاضلة أن الإنسان محتاج إلى الاجتماع والتعاون فى وجوده وفى أن يبلغ كماله، فالاجتماع للناس ضرورى، والتعاون فى هذا الاجتماع ضرورى، وما كان التعاون فيه ضروريا لا يجوز فيه التعدى، ولا يكون فيه التعدى طبيعة وفطرة.

أثبت الفارابى ذلك فلم يحتج إلى تفنيد أدلتهم تفصيلا، ونحن نكتفى بما اكتفى به الفارابى، إلا أننا سنشير إلى بعض عيوب فى أدلتهم، ونبين من أين جاءها الفساد.

قياس الإنسان على سائر الحيوانات غير الناطقة، قياس فاسد، فلا يقال السمك يعيش عيشة تعد فيأكل قويه ضعيفه، فالإنسان مثله، لأنه قياس مع الفارق، ولا يجوز القياس مع الفارق الذى قد يؤثر فى الحكم، فالإنسان حيوان عاقل، وسائر الحيوانات لا تمتاز بالعقل، ولو جاز قياس الإنسان على الحيوان الأعجم لأنتج مثل هذا القياس. الإنسان كالحيوان الأعجم، والحيوان الأعجم لا يفكر فالإنسان لا يفكر والحيوان الأعجم غير منتصب القامة، فالإنسان غير منتصب القامة.

توسعة البحث

كان الترتيب المنطقي - مادمنا نبحث عن عيوب المجتمع الإنساني التي قادته إلى حافة الهاوية - أن ندرس البشر في مجتمعاتهم لنعلم كيف يعيشون، وكيف يجتمعون، وكيف يفترقون، وما هي آمالهم من الحياة التي تضطرب في صدورهم، ويجعلونها غاياتهم العظمى التي يسعون إليها؟ وما هي علاقة بعضهم ببعض، لنعلم داء البشرية الأعظم الذي يوشك أن يودي بها؟

كان الترتيب الطبيعي يقضي علينا بهذا البحث الأعم الأشمل، لا أن ننظر في زاوية صغيرة منه، وهي الأفكار المخربة والآراء السبعية المدمرة، ولكننا آثرنا ذلك لنبين قوة الأفكار والآراء في هذه الحياة، وما للآراء السبعية من قسط عظيم فيما تعانيه الإنسانية، ولنبدأ أول ما نبدأ في هذا الكتاب بإبطال هذه الآراء، وذكر جهود فلاسفة الإنسانية الأقدمين في نقضها وإبطالها.

أما وقد بلغنا من ذلك ما نريد ووفيناه حقه فلا بأس أن ترجع للبحث الواسع الأعم الأشمل.

المجتمع الإنسانى

إن الناس يعيشون على ظهر الأرض أقواما وشعوبا مختلفة، وممالك متفرقة، كل جماعة جمع بينها جامع من نسب أو دين أو لغة كونت أمة، وأصبحت تتعاون على تحصيل المنافع ودفع المضار.

وكل أمة تولى أقوامها الود والصفاء، وتولى غيرها البغض والعداء، كل أمة تريد توفير الخير لها دون الأمم الأخرى وتسعى إلى ذلك بغلبة السلاح أو بالمكر أو الخديعة!

وأنواع المكر كثيرة: منها إخفاء الأغراض الشريرة وإظهار أغراض أخرى خيره، ومنها الوعود الكاذبة، ومنها إيقاع الفتن بينهم، ليتباغضوا أو يتفرقوا فيسهل صيدهم متفرقين، ومنها نصب الحبائل والشباك، ليقعوا فيها «كما هوى عن غطاء الزبية الأسد».

وأغراضهم العظمى فى الحياة هى سلامة الأبدان والثروة والمجد والشهوات والحرية.

وكما أن هذه الأغراض فى الأفراد كذلك هى فى الأمم، فمن الأمم من تريد الثروة والغنى، فكل سعيها موجه إلى المال وتحصيله، ومنها من تريد العزة والشرف، فهى تحب أن يشار

إليهـا بأنهـا قـوية ، أو أقـوى أمم الأرض ، ومنهـا أمم غـرضـهـا اللذة وإعطاء نفوسها أقصى ما تقدر عليه من الشهوات .

وقد تجتمع هذه الأغراض أو بعضها فى أمة واحدة .

والسـمـة الظاهرة على أمم الأرض فى هذا العـصـر حب الغنى والثـروة فـقـد ملك عليـهم أمرهـم ، فكان المال غرضـهـم الأسمى وغايتهم العظمى فى الحياة ، وهم يسلكون إلى ذلك كل سبيل ، فينزعون اللقمة من فم الجائع ليضعوها فى أفواههم ، ويسلبون الفـقـيـر درهمـه لـيـضـمـوه إلى خزائـنهم التى لا تنفد ، فكـلـهم كالخصمين اللذين دخلا على داود فـقـال أحدهما مـشـيرا إلى الآخر :

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ﴾(١) .

قد كان للأمم دين يكفهم بعض الشىء . وخلق يحملهم على الاعتدال فى الشهوات ، أما الآن فزال الدين أو ضعف ، وضعفت

---

(١) ص (٢٢، ٢٣)

الأخلاق ولاسيما عند الأمم القوية، فخلى البشر وشهواتهم، وانسابوا كالحيوانات العجماوات دون رادع من دين أو خلق، وقد افتنوا فى الشهوات وزينوها وجعلوا لها سبلا تغرى بها، كالموسيقى، والرقص، والغناء، والأشعار الماجنة الخليعة، والخمور المعتقة! وقد بالغت المرأة فى زينتها وتثنيها وإبداء ما خفى من جسمها حتى فى المحافل الراقية، وغمروا الراقصات والمغنيين والمغنيات والعازفين والعازفات بالمال والهبات، وصار الأشرار فى عداد الطبقة العليا وصار أولو الأخلاق والاستقامة فى الطبقة الدنيا!

هذا الجشع للمال لا يماثله جشع فيما مضى من الدنيا ولم يكن مثله فى الإنسان الماضى ولا فى العجماوات من الحيوان.

إنه أنذل جشع، لأنهم يأكلون ويمتلئون والدنيا حولهم جياع خماص، كأنما يعينهم الشاعر إذ يقول:

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم
وجارتكم غرثى يبتن خمائصا

بل إنه أحط من ذلك دركات فى اللؤم والدناءة والخسة، لأنهم يأخذون من الضعيف الجائع مع امتلائهم وامتلاء أهرائهم.

أما الأسد الأعجم فيأكل من فريسته حتى يمتلىء ثم يترك

سائرها فيأكل منها ضعاف الطيور والحيوان.

وإنه أحمق جشع، لأن الحيوانات تفترس عند الحاجة، عند الجوع والمخمصة، أما الأمم هؤلاء فتفترس وهى ملاء البطون، ليست بغرثى ولا خمائص، وليست ملاء فحسب، بل إن عندها مدخر الغد وما بعد غد، بل إن مدخراتها تفى بعمرها كله ولو عاشت مئات السنين، ومع ذلك تقاتل وتفترس كما يقاتل النكد الحريص والمقل الشحيح كأنما تعيش أبدا وتبقى سرمدا.

وإنه أقتل جشع! كم ضرب من مدن، ويتم من أطفال وأرمل من نساء، وقتل من نساء ورجال وبنين وبنات!!

وهذه الحرب الماضية التى خربت بريطانيا أولا وألمانيا ثانيا، ونشرت الخرائب والدمار فى روسيا وأوروبا واليابان، والشرق والغرب، وهى نبت الجشع وسببها المثير لها هو الطمع، وكذلك الحرب الأولى، وإذا رأيت القرن الثامن عشر والتاسع عشر ملطخين بالدماء فى أمريكا وأفريقيا فاعلم أنه أنتى من الجشع.

إن الكلاب قد تتزاحم على الجيفة، وتتنابح وتتعادى ويخيف بعضها بعضا، ويدمى بعضها بعضا ولكنها لا تصل إلى حد الموت والفناء.

أما هذه الأمم فتتقاتل وتتفانى على الجيف، وقد وصل الأمر إلى أنها تعرض النوع الإنسانى كله للفناء والانقراض فى القليل والزهيد، وما جيلنا الحاضر كلها بجانب عمر الدنيا إلا قليل زهيد، بل أقل من القليل وأزهد من الزهيد.

إن الظلم فى هذا القرن أظلم ظلم وأشنعه! وأشد ظلم وأبشعه! لأن أصحابه يعتقدونه عدلا، فهم يأتونه بقوة، ويبالغون فيه أعظم المبالغة، أما الظلم فى الماضى فكان الناس يظلمون ويعتقدون أنهم يظلمون فيأتونه على خوف واستحياء أو وجل واستخفاء أو كانوا يؤلونه ويلتمسون لأنفسهم المعاذير، وكانوا لا يسلمون من تأنيب الضمير، ونقد الناس وخوف الله، فكان الظلم إذا خرج بعد ذلك خرج ضعيفا متهالكا مستخزيا.

وإنه أعم ظلم وأشمله، فقد كان الظلم فى الماضى يصيب الأفراد والجماعات أما الآن فهو يصيب القارة بأسرها، وما رأى الناس قبل استعمار الأمريكتين أمما بأكملها تهلك وسكان قارة بأكملها تبيد!

فقد أباد المستعمرون سكان القارة الأمريكية الأصليين ـ الهنود الحمر ـ وقد فعلوا ذلك بما سنوا من قوانين جائرة، واستنزفوا من جهد، وما سخروا من بشر. ثم لما هلك هؤلاء واحتاجوا إلى الأيدى العاملة تعمل فى مزارعهم ومناجمهم،

استوردوها من سكان أفريقيا بطرق شتى منها النخاسة والغزو، وكان علماء الاجتماع يسوغون لهم ما يفعلون، فكانوا كمفتى القرى الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال.

وهو بعد ذلك أنكى ظلم وأوجعه وأقسى ظلم وألذعه! إنه ظلم يسلب الناس حريتهم وحقهم فى الحياة وفي التملك والتنقل، ويسلبهم جهودهم وأرضهم، ويجعلهم عبيدا مسخرين، لا ينتقلون إلا بإذن سيدهم، وهم أرجاس أدناس، لا ينزلون فنادق البيض ولا يدخلون معابدهم، ولا يقبلون فى مدارسهم، ولا يتعلمون علومهم كأن اللون جريمة لا تغتفر، تصيب اللعنة صاحبه فتجعله كالكلب أو أخس، وكالخنزير أو أحقر، وقد حكم عليه وعلى أولاده ألا يجعل له فرصة الخروج من طبقته، وأن يظل هو وأولاده خدما مسخرين، وليس إلى خروج من سبيل.

فلا عجب بعد هذا الطمع الطامع والظلم الظالم، أن يقفا بالبشرية على شفا الهلاك، وأن يهددا النوع البشرى بالزوال والانقراض، وأن تنقى الأرض من بنى الإنسان فتكون أنقى من الراحة، أو تكون كما قال لبيد:

اضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا

أخنى عليها الذى أخنى على لبد

أو كما قال الآخر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بل كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾(١) .

الطمع الطامع والظلم الظالم هما معبودا الناس وصنما الإنسانية اليوم ، وهما أشد استبدادا بالأمم القوية منها «أى الأمم القوية» بالأمم الضعيفة ، فما استبداد المستعمرين بالأمريكيين والأفريقيين والآسيويين بأشد من استبداد الطمع والظلم بهؤلاء المستعمرين .

***

وسبيلنا فى هذا الكتاب أن نرفع الغشاوة عن أعين البشر حتى يروا هذين الإلهين الزائفين .

---

(١) يونس : ٢٤

سبيلنا أن نقتلعهم من عليائهما ونرمي بهما في الرغام، ونخلص البشرية من استبدادهما المخيف وظلمهما الجائر، كذلك الذى كان يعبد صنما من حجر وقد كان ذا إبل وغنم، فأفناها في التقرب إلى صنمه بذبحها ونحرها حتى افتقر، فاحتمل صنمه وقصد أحياء العرب يسألها ويستجديها. وبينا هو سائر في البرية اضطره قضاء الحاجة أن يضعه على الطريق ويذهب لها، وبينا هو بعيد عنه ينظر إليه إذ شاهد ثعلبا جاء إليه ورفع رجله، وبال عليه فامتقع لونه، واصطكت أسنانه وارتجفت ركبتاه، وظن أن السماء ستقع على الأرض، وأن الصواعق لا محالة واقعة، فتحرق الأرض ومن عليها أو على الأقل هذا الثعلب الوقح. وما راعه إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث، وذهب الثعلب سالما غانما لم يصب بسوء، فجاء إلى صنمه وحطمه ورفعت الغشاوة عن عينيه وقال:

أرب يبول الثعلبان برأسه
لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وقد بلغ من استبداد الظلم والطمع بالأمم القوية أنهما أوفيا بهم على الهلاك الماحق، والموت المبيد، بل أوفيا بهم وبالبشرية جميعا على حافة الهاوية! وقد جعلا على أعينهم غشاوة فلا يبصرون، وفي آذانهم وقرا فلا يسمعون، وفي قلوبهم أكنة فلا يعقلون، فظلوا يتنازعون على حافتها! ويوشك أن تزل الأقدام. فإذا هم في أعماق الهاوية ساقطون!!

تقويم المال والدنيا أكثر من قيمتها

آفة البشر في شيئين:

تقويم المال أكثر من قيمته، وتقويم الدنيا أكثر من قيمتها، قوم البشر المال أكثر من قيمته، غالوا فيه صعدا فأحبوه حبا ملك عليهم أمرهم، وصرفهم عما سواه، وغالى البشر في قيمة الدنيا صعدا فأحبوها كذلك حبا جعلهم يتكالبون عليها ويفتنون بها.

ولو قوموا المال والدنيا على حقيقتهما ولم يسرفوا في قيمتها هابطين ولا صاعدين، لأحبوهما مقتدصين لا غالين ولا مقصرين، حبا عمرت به الدنيا وحفظ عليهم وجودهم وسيادتهم.

ما أحوجنا إذا وما أحوج البشرية إلى أن تعلم ما في المال والدنيا من نقائص ورذائل، وبقدر هذا العلم يكون الاقتصاد في الحب.

***

أول عيوب الدنيا أن المرء ليس مخلدا فيها ولا باقيا، بل هو فيها مدة قصيرة ثم زائل عنها ومرتحل، فهو كمسافر قال تحت ظل شجرة ثم تركها وارتحل، أو تركه الظل وزال، ولذلك قالوا:

الدنيا كأحلام نائم أو كظل زائل. وإن امرءا يود أن يبقى فى حلمه اللذيذ لأحمق، أو يبقى فى الظل الصائر إلى الزوال لمغرور. فالدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء.

وهذا العلم الذى لاشك فيه إذا أخطره المرء بباله قلل من حبها والاغترار بها فسعى فيها سعيا قصدا لا وانيا فى السعى ولا مغذا وما حاجته إلى أن يكد فى الدنيا ويجمع ما يكفيه إلى الأبد، ثم هو يذهب ويتركه، ولم ينفق منه إلا مثل قطرة من بحر، أما البحر الأعظم فقد حجزه عن مستحقيه ومن هم فى حاجة إليه؟

إني أريد أن أضرب مثلا يوضح ما عليه البشر الآن من تعريضهم العالم للفناء في أمر باطل وحلم زائل.

إن مثلي ومثل البشر، مثل قوم ركبوا سفينة فلاحت لهم جزيرة فنزلوا فيها لمدة قصيرة عشر سنين، فلما انتشروا فيها ورأوا ظلها الظليل ونسيمها العليل، وماءها السلسبيل، وأزهارها النضرة، وفاكهتها الحلوة، وطيورها المغردة، وحيواناتها الشاردة شغلوا بالصيد والقنص، والطعام والشراب، ثم استكشفوا أحجارها الثمينة من الياقوت والماس والذهب والفضة، فأخذوا يجمعون من هذه الأحجار القناطير المقنطرة، فجاءهم ربان السفينة وقال: إن سعيكم لباطل، إن السفينة التي أقلتكم ليس فيها موضع لما تجمعون، وستذهبون

إليها خفافاً كما جئتم منها خفافا، فكل ما تجمعون قبض الريح، فإذا نزلتم السفينة فلن تجدوا شيئا منه في أيديكم، فلم يسمعوا قوله، وأكبوا على الجمع والاختزان. ثم زاد الخطب فطمع كل فيما في يد صاحبه من هذه الأحجار الكريمة، وأراد أن يحتازها، فتنازعوا وتشاجروا وتقاتلوا، فجاءهم ربان السفينة وقال: هذا أدهى وأمر وأشد نكرا مما فعلتم! أتتقاتلون على حطام لا يبقى في أيديكم إلا سنين معدودة وأوقاتا محدودة؟

ومازالوا كذلك يتقاتلون ويتناحرون حتى جاء يوم الرحيل، فذهبوا إلى السفينة سراعا خفافا، ليس في أيديهم شيء مما جمعوا، وخلفوا كل ما تقاتلوا عليه وراءهم، ولم ينالوا منه إلا التعب والمشقة، ثم الحسرة والندامة!!

قياس صحيح، وموازنة صادقة.

أليس ملوك الذهب والفضة والماس، وبالجملة ملوك المال من أي نوع يتركون الدنيا وليس في أيديهم شيء مما جمعوا، كما خرج ملوك المال من الجزيرة وركبوا السفينة وخلفوا كل ما جمعوا وراءهم؟ أليس النصب والتعب كان حظ هؤلاء من سعيهم كما كان حظ أولئك؟ أليست الحسرة والندامة كانت عاقبة هؤلاء كما كانت عاقبة أولئك؟ أليس كل من في الدنيا يخرج منها عاريا كما خرج من حلوا بالجزيرة من جزيرتهم؟

وإن شئت فانظر إلى ما حولك وإلى كل ما تملك : إلى الدار التى تسكنها . والضياع التى تملكها ، والآنية التى تستعملها ، ألم يملكها قوم قبلك ؟ وسيملكها قوم بعدك ، وستتداولها الأيدى ، وتتعاورها الملاك دواليك حتى آخر عمر الدنيا !

قلنا : إن القياس صحيح ، ولا فرق إلا أن أهل الدنيا يمكث أحدهم فى الدنيا إلى مائة أو مائة وعشرين من السنين ، وسكان السفينة جعلتهم يمكثون فى الجزيرة عشر سنين ، وهذا قليل فى جنب ما يمكثه أهل الدنيا ، والقلة والكثرة ، والطول والقصر لها تأثير كبير فيما نحن فيه .

قلنا أننا قصرنا المدة ليظهر حمق المغتر بها والراكن إليها . على أن العمر فى الممثل له والممثل به قريب من قريب . وأجل المرء فى الدنيا وإن طال عمره لا محالة آت ، وكل آت قريب . إنما البعيد ما ليس بآت .

على أن عمر أهل السفينة فى الجزيرة لو بلغ مائة سنة أو يزيد لكان حمق المغتر بها الراكن إليها الجامع لما يتركه بعد حين ، ظاهرا للعيان ، لا يشك فيه ، أو يجب ألا يشك فيه اثنان .

***

ولعل قائلا يقول : إنك بما تقول تدعو إلى الفقر والزهد فى الدنيا وقصر الأمل فيها وهذا محال ، وضرب فى حديد بارد ،

وإنك تستعين بالخيال والتمويه.

فنقول إن ما قلناه من قصر عمر المرء في الدنيا، وتسرب الموت إليه حق لا مرية فيه، وقد استولى هذا الحق على نفوس قوم فنشأت لهم حال الزهد، وقصر الأمل فيها، حتى إنه قيل لأحدهم لم لا تبني بيتاً؟ فقال: الأمر أعجل من هذا.

ولما قدم عمر الشام استقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً، فقال: إن هذا يبلغنا المقيل.

ونحن لا ندعو أهل العصر إلى هذه المنزلة فهي أندر من الكبريت الأحمر لا ينالها إلا الصديقون والفلاسفة الزاهدون:

وبعيد نيل هاتيك جداً
تلك عليا مراتب الأنبياء

إنما الذي نطمع فيه أن نري الناس هذا الوجه من الدنيا.. وجه الفناء والتقضي والزوال، ونذكرهم به وندعوهم إلى التفكير فيه، فتنشأ عندهم حال تكسر من حدة الجشع والطمع وسفك الدماء وإزهاق الأنفس، لعرض زائل وثلج ذائب.

إن من الحق أن نكسر حدة هذا الجشع، ونفثأ نار هذا الطمع، ونعيدهم إلى القصد والاعتدال، لأن الاعتدال في كل أمر هو

الخير والفضيلة، والشر فى السرف والتجاوز، وخير الأمور الوسط.

إنه لا نجاة للعالم إلا بهذا التوسط، وهذا القصد والاعتدال، فإن لم يكن بد من المغالاة فلتكن فى الطرف المقابل لما عليه الناس، لأنهم غالوا فى الطمع، ولا يزيل هذا الغلو إلا مغالاة فى القناعة، ولا يدفع الإغراق إلا الإغراق.

ويجمع هذا الباب كله قول الحسن البصرى افضح الموت الحياة، أى بين قيمتها البخس لأنها فانية، غير باقية.

وقد أخذ هذا المعنى المرحوم أحمد شوقى فقال:

خطيب صامت فضح الليالى

وكشف عن خنا الدنيا القناعا

إذا حضر النفوس فلا نعيم

تلذ به النفوس ولا متاعا

عبادة المال!

في القرون الأخيرة ظهرت ظاهرة غريبة لم تكن فيما سلف من عمر الدنيا، وهي الجشع الشديد للمال، والنهم المسعور للمادة، لدى كل من العامة والخاصة.

فأما العامة، فسعيهم للمال، وحرصهم على المال، وتفكيرهم في المال للمال.

وأما الخاصة: فعلماء الاقتصاد مثلا، بحثهم واستنتاجهم في المال؛ ورجال السياسة، سياستهم تدبير المال، ووعودهم لأممهم أنهم سيوفرون لهم المال؛ وعلماء الاجتماع وإصلاح الممالك انحصر إصلاحهم في تدبير المال، حتى صار المال هو شغل الدنيا الشاغل، فأبصار الناس معقودة كلها عليه، وآمالهم متجهة إليه، كأنه من القلوب قد خلق، فهو قطعة منها تحن إليه حنين الأم إلى ولدها، أو كأنه رب معبود تعنو له جباههم وتخشع له قلوبهم، وينصبون في طاعته أبدانهم، فهم له في ركوع وسجود، وتحميد وتهليل، وعبادة وتكبير.

وكما كانت الأرباب في الماضي هي الآمرة الناهية المتسلطة على البشر يسفكون في إرضائها دماءهم وينفقون فيها أموالهم ويبذلون في سبيلها المال والولد وكل ما ملكت أيديهم – أصبح

المال هو الرب المسيطر القادر القاهر، فيه الجهاد، وله العبادة، وله بذل النفوس والأموال!

وهذه الحال نشأت أول ما نشأت في أوربة، وسببها استكشاف قارات كانت مجهولة، وأراض بكر، وضياع خصبة، وكنوز مدفونة. فأصبح الأوربي الذى ضاقت به أرضه، وعز القوت، عليه في بلده، يسافر إلى هذه القارات فيجد الضياع الواسعة وسكان هذه البلاد القدماء الذين يمكن استخدامهم وجلب الخيرات من بلادهم فيثرى ويغتنى. وما إن يسمع جيرانه في بلده الأولى وأقرباؤه بغناه وثرائه حتي يلحقوا به، ليكون لهم مثل ما كان له، وليجدوا مثل ما وجد، ويوفروا من المال مثل ما وفر.

وكانت حكوماتهم تمهد لهم السبيل فتكشف الممالك النائية، وتحارب البلاد المستعصية، وتحول السكان الأصيليين إلى خدم وعبيد لهؤلاء الوافدين! فأصبح الفرد يملك الكفاية وفوق الكفاية بآلاف الأضعاف. وأدى ذلك إلى أن تكون حكوماتهم كذلك، بما يؤدون إليها من خراج وضرائب.

زاد الغنى واليسار فصرفوا فضل المال إلى القوة والسلاح ليخضعوا بهما السكان القدماء، ويذودوا بهما الحسدة المنافسين.

واشترك العقل في ابتكار سلاح أمضى من سلاح، واختراع قوة أعظم من قوة، كما اشترك في استكشاف المناجم وخيرات الأرض وابتكار الآلات والمستحدثات، وما يخصب الأرض ويوفر الزرع، ويسهل الحرث والحصاد، ويقرب المسافات ويعرف ما في باطن الأرض من كنوز وذخائر، وما السبيل إلى استخراجها والانتفاع بها. وما كان ابتكار المبتكرين واختراع المخترعين، إلا بحثاً عن المال وطلباً له.

فتولد هذا السعار للمال الذى لم تشهد الدنيا مثله، وكانت هذه المدنية مدنية المال، منه نشأت وعليه بنيت وفي ظله نمت وازدهرت.

وقد بان لأهل الأرض جميعا أن المال هو سر قوة الأمم القوية، وأن الفقر هو سر ضعف الأمم الضعيفة، به امتلكت الأولى الثانية واستعبدتها وسخرتها في خدمتها.

قدرت الأولى بالمال على بناء الطائرات في الجو، والسابحات في البحر، وعلى بناء المدافع والدبابات، وكانت بذلك أقدر من الأمم الأخرى فامتلكتها وسخرتها!

ولعل قائلا يقول: إن عبادة المال ليست جديدة، وليست هي من خاصية هذا العصر، بل كانت في القديم أيضا، وقد عرف الأوائل للمال هذه القدرة حتى قيل في الدينار: «لولا التقى

لقلت جلت قدرته» .

قلنا : إن ذلك يختلف قوة وضعفاً ، وعموما وخصوصاً فقد كان في الماضي خاصا لا عاما ، وكان بمثابة الخطرات واللمحات ، أما الآن فهو أقوى قوة وأشد سلطانا ، فقد أصبح عقيدة لاصقة بالقلوب ، حاضرة غير غائبة ، وشاهدة غير نائية . كان في الماضي ينازع المال أرباب متعددون ، فكانوا ينازعونه سلطان القلوب . أما الآن فقد استبد بالقلوب ، وطرد كل رب إلا إياه ، وهزم كل سلطان إلا سلطانه . كانوا في الماضي يعرفون له بعض عيوبه ومضاره ، فكانوا يقولون لولا المال لم تملأ الأرض بالمصائب والآفات !

فلولاه لم يسرق السارق ، ولم يغتصب المغتصب ، ولم يحارب المحارب ، ولم يظلم الظالم . وكانوا يتندرون بالدينار فيقولون : أصفر ذو وجهين كالمنافق ، يبدو بوصفين لعين الرامق ، زينة معشوق ولون عاشق ، وشر ما فيه من الخلائق ، أن ليس يغني عنك في المضايق ، إلا إذا فر فرار الآبق .

أما الآن فيحملون أمثال هذا القول على الزور والكذب ، أو على الخديعة والمكر ، أو على الجهل والحماقة ، والغرارة والسذاجة .

وكان في الماضي مذاهب وفلسفات ، ترى الزهد والتقشف ،

والتعرى عنه والتجرد، وكان منها ما يرى أنه لا يبلغ المرء كماله، ولا تصفو نفسه إلا إذا تجرد منه وقطع العلائق به.

أما الآن فقد صارت هذه المذاهب فى خبر كان، وأصبح إجماعا أو شبه إجماع تعظيم المال وتقديره، وحبه وعشقه، بل تأليهه وعبادته!

وهذا الذى أوجد تلك الحضارة ونماها وتعهدها، هو الذى سيبيدها، وهذا الذى أحياها هو الذى سيميتها، فهو المعطى السالب، وهو النافع الضار، وهو المحيى المميت.

ذاك أن الأمم أدركوا قيمته فطلبوه، ورأوا ما فيه من نفع فتكالبوا عليه، ونازع بعضهم بعضاً على القليل منه والكثير، وأصبحت الناس أقساما ثلاثة:

قسم سبق فنال الممالك والدول، وفاز بنصيب الأسد من الأرض والرجال،

وقسم لم ينل منه إلا القليل أو لم ينل شيئا؛

وقسم مغلوب على أرضه فاستغلت، وخدم هو فى استغلالها.

وشرعت القوانين ليكونوا هم العبيد المسخرين، ويكون الأولون هم السادة المستعبدين.

وقع التظالم فى الأرض، فمن الناس من لا يملك، بل سلب

ملكه، ومنهم من يملك الدنيا! يملك نصيبه ونصيب المسلوبين! ومنهم من لا يقلون ذكاء وعلماً وإرادة، وحظهم أخس ونصيبهم أقل، وقد قسموا ما يملكون من أرض على عددهم فنال الفرد مثل أفحوص الطائر، أو كفة الحابل، على حين أن ما يملك الفرد من المجدودين آلاف الأميال يسرح فيها ويمرح، ويصول ويجول.

وقع الظلم، والظلم مؤد إلى النزاع، والنزاع مؤذن بالفناء والخراب: فجهد المحظوظون في تحصين أنفسهم ممن يريدون اغتصاب فريستهم، أو مقاسمتهم فيها واجتهد منافسوهم في مثل ذلك حتى اخترعت الأسلحة الفتاكة المبيدة، من المدافع والدبابات والطائرات والغواصات، وأخيرا القنبلة الذرية والهيدروجينية! وقد ملك المتنازعان هذا السلاح الخطر المبيد للبشرية، وفي أول تصادم ستكون الكارثة! ولا منجاة للبشرية إلا بأن تغير ما بأنفسها، ليغير الله ما بها.

يجب أن يزول هذا الوضع، لتزول نتائجه السيئة: لا جائز أن يزول الناس، لأنهم النوع المكرم، ولأن بحوث العلماء وتعب المفكرين لبقائهم ورفاهيتهم، ولا يجوز أن يزول المال، لأن به المعاش وقيام الحياة. إنما الجائز هو أن تزول هذه القسمة الظالمة، ولا يمكن ذلك إلا إذا زال هذا الإفراط في حب المال، وشره النفوس إليه، وجعله المقصد الأسنى من الحياة، والقطب الذى

تدور عليه الدنيا، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا عرف الناس أضرار المال كما عرفوا منافعه، وإلا إذا كشف لهم عن وجهه القبيح الدميم فعرفوه، كما عرفوا وجهه الحسن الجميل. عندها يأخذ الناس منه قدر الحاجة أو فوق الحاجة بقليل، أو فوقها بكثير، ولكن كثرة غير فاحشة كما هي الآن، وعندها لا يقع التظالم والتعدى، أو لا يبلغ من العنف ما هو بالغه الآن.

وسنحاول الكشف عن قيمة المال الحقيقية، فيقل طمع الناس فيه وتهافتهم عليه تهافت الفراش على النار.

وأول ما بيدنا من دليل يدل على قيمة المال وأن الناس قد غالوا فيه وأحلوه محلا ليس له أنه أوصل الناس إلى حافة الهاوية، وإلى هذا الوضع الذى لا تحسد عليه البشرية، وكأن الناس إذ كانوا يحبون المال ويفرطون فى جمعه كانوا يحبون الدمار ويغذون السير إليه!

***

كان العقل يقضى ألا يجمع المرء من المال إلا كفايته، أو ما فوق الكفاية بقليل. ما دام المرء فانياً، وما دام عمره فى الدنيا قصيراً، لأنه إذا جمع واستكثر فسيمضى عنه، ولا يأخذ منه فى قبره، ولا يختزن منه لآخرته، عش ما شئت فإنك ميت، واجمع ما شئت فإنك تاركه، ولكن الدنيا بنيت على غير

ذلك، فالناس فيها يجمعون ويستكثرون، خيال في نفوسهم، ووهم باطل قام عندهم. وإنما يدعو المرء إلى ألا يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة أمور: منها منازعة الشهوات التي لا تنال إلا بكثرة المال، فإذا نازعت المرء الشهوات طلب المال الذي يوصله إليها، والشهوات لا تتناهى، فيكون طلبه للمال غير متناه، والشهوات يدعو بعضها بعضاً، فكلما أوغل في الشهوات قويت وضريت، وكلما قويت وضريت طلب المال الذي يسدها به، وكلما أجابها وسدها قويت وضريت، وهكذا يدخل في دور يدور فيه، كالحمار الذي يدور في رحى لا ينتهي دورانه فيها:

وإنك مهما تعط بطنك سؤله

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

والإكثار من الشهوات يدعو إلى فقدها بعد أن يبتلى الجسم بالأمراض والعلل! فحري بمن يريد بقاء شهوته ألا يكثر منها، ولا يفرط فيها، ثم ينتهي به الحال أن يكون كالبهيمة التي لا هم لها إلا تحصيل شهواتها، فهي لا تنفك ولا تنزجر، وليس لها في غير الشهوات مراد.

ومنها أن يطلب الزيادة على الحاجة ليدخرها لورثته، ويخلفها لولده، فهو يكد ويتعب ويكسب المال، لا ليومه ولا

لغده، بل لما بعد يومه وغده، لورثته من بعده، فهو لحبه إياهم وخوفه من أن يضيعوا بعده، يقتني لهم العقار، ويدخر لهم المال، وربما ضن على نفسه، واكتسبه من غير حله، ولو تأمل في حاله لوجده في وضع لا يحسد عليه، بل يرثي له منه! فهو يشقى بجمع مالا ينتفع به! ويحتمل الذم وسوء الأحدوثة في سبيل غيره! وقد يجد بعض العذر من يتحمل تبعات المظالم لنفسه، فأما من يتحملها لغيره فليس له من عذر.

ولو علم هذا المسكين لمن يجمع، ولمن يرتكب المظالم، لما كدّ وتعب وظلم.

إنه يجمع ويظلم في الغالب لمن يستعجل موته، ويستبطىء أجله ولمن يفرح إذا جاءه الأجل؛ لأنه سيئول إليه ماله، وسيحل محله. ولو قدر لذلك الشقي أن يرى ورثته وهم يتنازعون في ميراثه، وربما كان ذلك قبل دفنه، وقد شغلهم ما أتتهم من دنيا عن الحزن عليه والرثاء له، وقد ملوا البكاء المزور فما يبكيه من أحد، والتهموا ماله كالكلاب الجائعة، مع الفرح الذى لا يقدرون على إخفائه، بل ربما أعلنوه، وذكروا مساوئه من بخله وتقتيره، مع أنه كان يبخل ليدخره لهم. ويحرم نفسه ليبقيه عليهم، فصار ساعياً محروماً، وجاهداً مذموماً!!

نقول لو قدر له أن يرى ورثته في هذه الحال لعض بنان الندم على عمر أضاعه ونصب تكبده، لمن لا يحمدونه بل يذمونه،

ولمن هم أعدى أعدائه، وشر من أعدى أعدائه!

وقد ألم بهذا المعنى شاعر حكيم فقال:

تمتع بمالك قبل الممات
وإلا فلا مال إن أنت متا
شقيت به ثم خلفته
لغيرك، بعداً وسحقاً ومقتا
وأرهنتهم كل ما في يديك
وخلوك رهناً بما قد كسبتا

وشر من ذلك أن حرصه على أولاده وادخاره لهم، يفقدهم ملكة الاستقلال والاعتماد على النفس، ويطفيء فيهم شعلة الذكاء والابتكار، ومعرفة طرق كسب المعايش، والجلد مع مكابدة الشدائد، وهذه أثمن مما خلفه، فهو شقي من كل جهة، وليس يستحق إلا ما قاله الشاعر:

إذا سمعت بهلك للبخيل فقل
بعداً وسحقاً له من هالك مودى
أمواله جنة للوارثين إذا
أودى وجثمانه للترب والدود

وكما تكون هذه البواعث في الأفراد تكون في الدول،

فتكون دولة غرضها الشراء وجمع المال: إما لقضاء الشهوات، أو لمن يأتون من بعدهم؛ لأن الدولة مجموع الأفراد فتتمثل فيها رغباتهم وأغراضهم.

وتزيد الدولة من بواعث جمع المال باعثاً آخر، وهو الرغبة في إعداد القوى الحربية التي تعين الدولة على دفع الأعداء أو التسلط على الأمم البدائية أو الضعيفة، وقهر العباد والبلاد!

ولو نظرت إلى ميزانيات الدول الحربية لهالك الرقم. وما يبذل فيها من المال. فكم كلفت الدول تجارب القنبلة الذرية؟ وكم كلفها إنتاج القنبلة الواحدة؟ وكم كلفها إنتاج المخزون منها والمدخر؟!

***

ومن كلفته النفس فوق كفافها

فما ينقضي حتى الممات عناؤه

يقول من كلفته النفس فوق ما يكفيها ويسد حاجتها، فهو في شقاء دائم، وعناء لا ينقضي؛ لأنه إذا كان يريد الكفاف أو فوقه بقليل وقف عنده؛ أما إذا طمحت نفسه فليس له حد ينتهي إليه، وجمع واستكثر، وكلما جمع طمع فيما هو أكثر منه، وما يجمعه فوق الكفاية يرى غيره أنه حقه وأنه غصبه إياه، واختزنه دونه فحنق عليه ونازعه إياه، وحسده آخرون عليه فعملوا على

زواله، فهو في عناء من كده في جمعه، ونصبه في كسبه، وفي عناء من مدافعة من لهم شبهة فيه؛ ومن يحسدونه عليه. وهذا في الأمم كما هو في الأفراد، وتجد ذلك باستقراء أحوال الأمم، فأغنى أمم الأرض، أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا، وهم لا ينقضي عناؤهم ولا ينتهي شقاؤهم!

وحسبك أن ألمانيا فقدت في الحرب الأخيرة ستة ملايين من رجالها الأشداء، وشبابها الأصحاء وخرب من مدنها ومصانعها ما مكثت السنين تعمره، وتجدد ما أفسدته الحرب. كل ذلك التدمير في طلب المال!

وقد نكبت فرنسا وبريطانيا والدول الغربية بمثل ذلك أو قريب منه، وكل ذلك لاستبقاء المال. وقد كانت الحرب الأولى قبلها أكلت الأخضر واليابس، وأهلكت الزرع والضرع فما ينتهون من حرب إلا إلى حرب، وتسلمهم الحرب الأولى إلى حرب ثانية، وإني أعيذ البشر أن تسلمهم الثانية إلى الثالثة؛ فإنها ثالثة الأثافي!

أليس ذلك مصداقا للحكمة القائلة:

ومن كلفته النفس فوق كفافها

فما ينقضي حتى الممات عناؤه؟

***

ما حظ الرجل من مال يكدح فيه طول حياته كدحا يشغله عن الاستمتاع بما في الدنيا من بهجة ونضرة، ثم يأتيه هادم اللذات ومفرق الجماعات، فيخلف ما له وهو حسير، ويتبعه بصره وهو كليل؟! أليس موقفه من ماله هو موقف الحارس الذي لا يناله منه إلا القليل؟!

أنت للمال إذا أمسكته
فإذا أنفقته فالمال لك

ما رأيت مغبوطا حقه أن يرحم، ولا محسودا حقه أن يرثى له من هذا الذي نصب في جمع المال وجمع منه حاجته وفوق حاجته، وكلما جمع وأكثر ازداد حبا في الجمع والإكثار، حتى جاءه الموت أكثر ما يكون مالا، وأسوأ ما يكون مع كثرة ماله حالا، لأنه شقي بالجمع وأضاع حظه من راحة البال، وجمال الطبيعة، ومتع الدنيا!!

فإذا أضاف إلى ذلك أنه جمعه من غير حله، وأخذه من غير حقه، وكان القتل والنهب من أسبابه كما يفعل المستعمرون؛ فإنهم لا يستولون على المستعمرات إلا بحرب وقتل حتى يخضعوا أهلها. وإذا طالبهم أهلها بالاستقلال قاتلوهم وأخمدوا مع ذلك جذوة نفوسهم حتى يذلوا وتموت نفوسهم!!

نقول: إذا أضيف هذا إلى ما تقدم كان ضغثاً على إبالة.

***

إن الدول الكبرى لم تبلغ ما بلغته من الثراء الكثير إلا بعد جهد كبير مضن في نيله وحيازته، وجهد كبير مضن في استبقائه والمحافظة عليه، وجهد كبير مضن في دفع الأيدى الممتدة إليه لاغتصابه أو سرقته ثم هى لا تتمتع من هذا الثراء إلا بجزء قليل منه، ثم تذهب عنه وتخلفه!

وإذا عرضنا هذا الوضع على العقل يحكم بأنه وضع فاسد؛ لأن المرء يحتاج إلى المال ليعيش فى رفاهية، ويعيش من يعولهم فى رفاهية مثله، وذلك يقتضى أن يكون له وقت طويل يفرغ فيه لنفسه يستمتع بأفكاره وبالطبيعة التى حوله، فإذا استغرق جمع المال أكثر وقته، واستغرق استبقاؤه الكثير من القليل الباقى، واستغرقت المدافعة عنه الكثير من الأقل الباقى، ثم بعد هذا الجهد الكبير يأتيه الموت فيذهب ويخلفه - عُدّ ذلك مغرما لا مغنما، وعد مضيعا لحظه من الحياة، وعد خارجا من الدنيا بصفقة المغبون.

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله

مخافة فقر فالذى صنع الفقر

***

أيتها الأمم، وأعنى سكان الأرض جميعا، إما أن يسترقكم المال، وإما أن تسترقوه، إما أن يملككم المال الذى تملكونه،

وإما أن تملكوه، فإن أخذتموه من حله، وأنفقتموه في حله، فقد ملكتموه، وإن أخذتموه من غير حله، وأنفقتموه في غير حله، ونازعكم عليه من يستحقونه فحاربتموهم في امتلاكه، وحاربتموهم في استبقائه، فقد ملككم واستذلكم واستعبدكم.

وهل يفعل العبد بسيده أكثر من أن يحارب دونه، ويبذل المهجة في استبقائه، والمحاماة عنه؟ فإن فعلتم ذلك في المال فقد ملككم واستذلكم.

هاتان الحربان العالميتان كانتا للمال: إما طلبا له، وإما استبقاء عليه، هذه الأمم الغربية قد لاقت ما لاقت من قتل وتخريب في سبيل استبقاء المال، وما أدركت النصر حتى كادت لا تدركه وهذه ألمانيا قد دوخت الأمم، وأنهكت الشعوب، ثم حطمتها الأمم بعد ذلك، وكان ذلك في سبيل طلب المال، نفست على الأمم أن تملك أفريقيا وآسيا: أرضهما وسكانهما، تستغل الأرض وتستخدم السكان، فأشعلت حربا بعد حرب، وكانت حجتها أنها تحارب في سبيل المجال الحيوى، فأنتم جميعا عبيد المال فأوردكم هذه الموارد المهلكة، فاعتقوا نفوسكم من المال قبل أن يهلككم ويهلك العالم معكم في حرب ثالثة، اتحدت فيها الغاية، واختلف فيها المتنازعون فبعد أن كان الخصم الآخر ألمانيا أصبح الخصم الآخر روسيا، ولكن الغاية واحدة، طلب المال أو استبقاؤه.

إني أقر للممتازين بأن تكون لهم ثمرة امتيازهم، وأن يفضلوا في المال والمتع على غيرهم، ولكن ذلك إلى حد ونهاية، إلى حد الكفاف وفوق الكفاف بمائتي ضعف، لا إلى حد أن تملك دولة من الدول نصف العالم وأن ساستها ليفخرون بأنها حررت في مدى سنتين خمسمائة مليون من البشر، فأعطتهم استقلالهم السياسي، وما يدرون أن في هذا الخطأ والعيب، إذ كيف يجوز لدولة ما أن تملك من البشر خمسمائة مليون؟ هذا عدا من لم تحرره بريطانيا من البشر، هذا جشع لا أدري له مثيلاً إلا ما قال الشاعر:

كالحوت إذ يلهيه شيء يلقمه

يصبح ظمآن وفي البحر فمه

بحسب بريطانيا أن تعيش على أعلى مستوى، ولكن ليس من حقها أن تزيد وتختزن، وتحبس رزق العباد عن العباد، وتملك ربع العالم!

لست من الذين ينصرون الكم على الكيف بإطلاق، ولا يقرون للكيف بامتياز ما وإنما أنا من الذين يقرون له بالامتياز ولكن باعتدال، فليس الضرر هو في الامتياز إنما الضرر في الإسراف فيه وعدم الاعتدال.

إن الأمر قد يكون فضيلة ما بقي على حد الاعتدال، فإذا دخله السرف صيره رذيلة ممقوتة ضارة غير نافعة.

***

ما رأيت حقا لاشك فيه، أشبه بباطل لاشك فيه كالموت، وما رأيت باطلا لاشك فيه أشبه بحق لاشك فيه كالحياة. يعني أن الموت حق وهو آت لاشك في ذلك، ولكن الناس ينسونه كأنه لا يجيئهم، وأن المنون لا تغتالهم، فيجمعون ويستكثرون ويتقاتلون على حطام الدنيا الزائل، وعلى متاعها الفانى، كأنما لا يأتيهم هذا اليقين الذى لا شك فيه، هادم اللذات ومفرق الجماعات.

الحياة باطلة، وهى حقا زائلة، وهذا مما لاشك فيه. والمرء فيها كضيف، وما في يده عارية والضيف مرتحل، والعارية مؤداة ولكن الناس ينسون أن الحياة فانية، وأنهم عنها راحلون، فيجمعون ويستكثرون ويتناحرون، كأنما يحيون أبدا ويخلدون فيها سرمدا.

***

هذا ما يستطيع أن يقدمه الشرق لأخيه الغرب فى هذه المحنة التى ليست محنته فقط، بل هى محنة البشرية كلها.

إنه لا يقدر أن يقدم طائرات ودبابات وغواصات وأسلحة ذرية ليخرج بها من هذه الأزمة، لا يستطيع أن يقدم ذلك لعدم

امتلاكه إياها، على أنه إذا ساعد بها لا تنفع في هذا الصراع، بل هي تؤججه وتزيد في أواره، لا يستطيع إلا أن يلفت العرب إلى قيمة الدنيا وأنها قيمة لا تستحق أن يتفانى البشر فرادى من أجلها، فكيف يصح أن يفنى البشر جميعا من أجلها؟!

إنه يقدم إليه ذلك ليرجعه إلى الاعتدال وإلى القصد، وليس من دواء في الدنيا لداء البشرية إلا هذا الدواء.

وهذه هي الروحانية التي وجدت في الشرق وينتظر المصلحون أن يفيد بها العالم.

إن الشرق يعرف أن السعادة في النفس لا في المال، وأن السعادة قد تملأ الكوخ الحقير، وتنير أرجاءه، وتسعد ساكنيه، وإنها قد تغادر القصر المشيد فيظلم وتعلوه الكآبة، ويخيم عليه الشقاء، فيضيق بساكنيه، ويصير أضيق من كفة الحابل، لأن ساكنيه ضاقت عليهم أنفسهم أولا، ومن ضاقت عليه نفسه لم تتسع له الدنيا وما فيها، ومصداق ذلك أننا نرى البائع المتجول الذي يحمل بضاعته على رأسه وهي حمل بعير، ويسير بها في الشوارع وربما صعد إلى أعلى العمارة حاملا لها فيبيع أو يخيب، وبين جوانحه من السعادة ما حرمها الغني المترف الفارغ من هموم العيش راكب الجواد الفاره أو السيارة الفاخرة.

إن السعادة كل السعادة في الرضا بالموجود، وعدم الحزن على المفقود، والأمل الكاذب فيما لا يكون.

أتهلك البشرية في حبة خردل؟

يا عجبا ! أتهلك البشرية في شيء لا يساوى حبة خردل ؟ !

إنهم يتنازعون على الثروة والمال وهذه لا تساوى بالقياس إليهم حبة خردل ، وذاك لأن الشيء تعظم قيمته بعظم الحاجة إليه وتصغر بصغرها ، فقناطير الذهب لا تساوى عند الجائع الظمآن الذى كاد يهلك من السغب والظمأ كسرة خبز ولا جرعة ماء ، لأن الكسرة تحفظ عليه حياته في ساعته تلك ، ولا يسد مسدها ملء الدنيا ذهبا وفضة .

والدول الغنية تتنازع وتكاد تفنى وتبيد على مثل ذلك ، فهى لا تتنازع على كفافها ولا ما هو فوق كفافها بمائة درجة ، بل تتنازع على ما هو فوق كفافها بأكثر من ذلك ، فهو فى قيمته لا يساوى حبة خردل بالقياس إليها ، بل هو أقل من لا شيء في العدد .

واتركوا ذلك وانظروا إلي القيم التى تعارفها الناس ، فما قيمة ما يتنازعون عليه بجنب بقاء البشرية ؟ ! ما برلين ؟ وما ألمانيا كلها وما أوربة بجنب بقاء النوع الإنسانى وما أسس من حضارة ؟ لا تجعلوا شيئا يقف فى طريق السلام ، فكل عقدة لها حل ، فلتكن برلين الغربية والشرقية لا للغرب ولا للشرق ، بل لألمانيا ولتوحد ألمانيا ، ولتكن على الحياد لا لروسيا ، فتكسب قوة لم تكن لها ، ولا للغرب فيزداد قوة لم تكن له .

هل هذا المقياس صحيح؟

لا أدرى ، هل ما تعارف عليه الناس وشاع فى كتاباتهم ومناقشتهم صحيح ؟

إن الناس يقيسون تقدم الأمم ورقيها بالقدرة على عيش أفضل ، وعلى مستوى من المعيشة أعلى.

فكلما كانت الأمم ذات مستوى من العيش أعلى كانت متقدمة، وكلما كانت ذات مستوى من العيش منخفض كانت متأخرة، أهذا المقياس صحيح أم باطل ؟

إن كبار الساسة فى الأمم الغنية يقولون : هذا المقياس صحيح ، وتبعهم الساسة فى الأمم الناشئة ، فترى الأمم الراقية الذين يساعدون الأمم الضعيفة على النهوض والتقدم، يسعون إلى جعلها ذات مستوى من العيش أعلى ، وترى الأمم التى تريد النهوض تتجه هذا الاتجاه ، والظاهر أن هذا جاء من تقدير المادة فوق قدرها ، فلم يكتفوا بما أحاطوها به من تعظيم واحترام ، حتى جعلوها مقياس التقدم والرقى ، فمن ملكها فهو الراقى المتقدم ومن حرمها فهو المتأخر المنحط ، وهم يرددون مع الشاعر قوله :

إن الدراهم فى المواطن كلها
تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة
وهى السلاح لمن أراد قتالا

ونحن نرى خلاف ذلك، فرقى الأمم أن تكون على مستوى من العلم والأخلاق والفضيلة أعلى، وانحطاطها أن تكون على مستوى من العلم والأخلاق أحط.

ونحن لا يعوزنا الاستدلال على ذلك، فالأسرة كالأمة، ونحن نرى أسرا تتمتع بمستوى من العيش أعلى وهى منحطة المدارك، تؤمن بالخرافات والاعتقادات الفاسدة، ونرى أسرا لم ترزق عيشا أرغد وهى مطهرة من الخرافات، سليمة التفكير، ذات خلق فاضل، وعقل سليم.

فهل نحكم بأن الأولى أرقى من الثانية، وأنها متقدمة عليها فى المدنية والحضارة؟ إن ذلك حكم باطل، ورأى جائر.

إن التقدم يرتبط برقى العقل وسلامة الفكر وقوة الإدراك كما يرتبط بحسن الخلق وسلامة المعاشرة، وحسن الجوار، وقوة الارتباط.

إن الشعوب التى ثارت على مستعمريها لم تثر لأنها جائعة، ولا لأنها تطلب معيشة ذات مستوى أعلى، وإنما ثارت لمعنى

أسمى، ثارت للكرامة الإنسانية، إنها خلقت لتكون حرة، فإذا هي مستعبدة، وخلقت ليكون أمرها بيدها فإذا هو بيد غيرها يقودها كما يقود البعير، ويسوقها كما يسوق الأنعام!

فطرة فطر عليها الإنسان إن فقدها زاد قلقه وساءت عيشته، وأراد الخلاص، ولو ببذل النفس وإراقة الدم! وهذا هو سر تقدم الإنسانية، إنها لا تطلب من دنياها الطعام واللباس فقط، بل تطلب الكرامة والعزة والحرية والتقدم فى معارج الكمال وترقية مداركها، فلا تصرفوها عن الرقى الحقيقى، إلى شىء تافه حقير.

إنها تريد أن تكون مثلكم قوة إدراك، واستقامة عقل، وعظم تفكير، وقوة استنباط، وسلامة من الخرافات والاعتقادات الباطلة، وما أرادت الاستقلال ونبذ العبودية، إلا لأنه يمكنها من ترقية مداركها، والسير فى طريق التقدم الصحيح.

إن الناس يسيئون الظن بكم، ويرونكم تلفتونهم عن طريق التقدم الصحيح، إلى طريق يكون همهم من الحياة أن يعيشوا ليأكلوا كما تأكل الأنعام، وأن يكون مثلهم كما قال الشاعر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ومن الحزن أن أكثر الدول الناهضة انساقت وراءكم، وأثرت

فيها دعايتكم، فصاروا لا يتكلمون إلا فى مستوى المعيشة، ولا يتجهون إلا إلى عيش أرغد، ويصرفون جهودهم إلى إصلاح الأرض والحيوان أكثر من إصلاح وترقية الإنسان.

إننا نطلب عقولا خصبة، فإذا أخصبت العقول أخصب وراءها كل شيء.

كأنى أسمع من يقول

ما أعجب هذا الرجل! ينعى على الثروة، ويجعلها داء أهل الأرض وعلة الفساد، ويرى أن لا صلاح لأهل الأرض إلا إذا ضعف هذا النهم إلى المال، وكفوا عن التسابق الجنونى عليه، وأنزلوه منزلة، لا غبن ولا مغالاة.

إنه بذلك يخالف أهل الأرض جميعا، الأمم القوية والأمم الضعيفة:

أما الأمم القوية فلأنها عرفت قيمة الثروة من زمن بعيد، وصححت أخطاءها الماضية. فعنيت بها وما يؤدى إليها، فأنشأت علم الاقتصاد، وهو العلم الذى يبحث عن الثروة، وكيف توجد، وكيف توزع؟

وأما الأمم الضعيفة فلأنها رأت ما فيه الأمم القوية من سيادة وعزة وعلم وتقدم، ورأت أن مرد ذلك إلى المال، فقلدت الأمم القوية فى حب المال.

إن المال هو الذى أوجد هذه الحضارة، وحب المال هو الذى جعل أهل الأرض يبحثون عن مصادر الثروة من النفط والفحم وجعلهم ينمون الصناعات، ويخترعون البخار والكهرباء، وإن الذى يريد نزع حب المال، يريد نزع الدوافع التى تدفع إلى

الاختراع والابتكار.

إن المال عصمة يعصم المرء من إراقة ماء وجهه، وسؤال الناس، ويسد حاجته، وهو قوة للفرد والأمة، فلولا المال ما استطاعت الأمة إنشاء ما تدفع به عن نفسها من الأساطيل والمدافع والطائرات والدبابات، وإنه صحة، والفقر مرض! فكيف يدعو إلى المرض، ويقبح الصحة، وينهى عنها؟

وإني أقول: إنني لا أنهى عن المال بإطلاق، وإنما أنهى عما جاوز الحاجة، وأحب أن تأخذ الأمم بهذه الحكمة: ما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

فلست أدعو إلى الفقر والمتربة، وإنما أدعو إلى الاعتدال والقصد في جمع المال، وأنهى عن هذا الهوس والسعار إلى المال.

وليس بعيب أن يخالف المرء رأى الجمهرة من الناس، أو أن يخالف الناس جميعا، إنما العيب أن يخالف بجهل، ويقول بدون علم.

إننا إذا رجعنا إلى التحقيق وجدنا ذلك أحرى أن يعد من المفاخر، لا أن يعد من المعايب.

إنه من الخير أن يتخلص المرء من التقليد، ويتخلص من غلبة عصره عليه، وأن ينظر مستقلا، ويؤمن بما يؤديه إليه نظرة

وبحثه، ولولا رجال خلصوا من سيطرة عصرهم، ومن الأفكار الغالبة عليهم، ولم يسيطر عليهم إلا الدليل، ولم تعن وجوههم إلا للبرهان لما تقدمت الإنسانية، ولبقيت كما كانت في تاريخها السحيق!

ليس بعيب أن يخرج المرء من سلطان عصره، ومن سلطان قومه وغير قومه، ومن سلطان الأفكار الشائعة، والآراء المتعارفة، وإنما العيب أن يكون المرء إمعة يحقب عقله الرجال، يقول: إن أصابوا أصبت، وإن أخطأوا أخطأت!

على من تقع التبعة؟!

على من تقع تبعة ترويع الناس وتخويفهم وإزعاجهم، وعدم أمنهم؟ يخافون إذا باتوا أن تصيبهم الكارثة وهم نيام، وإذا صحوا أن تصيبهم نهارا قبل أن يأووا إلى مضاجعهم!

على من تقع تبعة الواقعة إذا وقعت، والقنبلة إذا انطلقت، فأحدثت الخراب والدمار، والموت والهلاك، وأفنت النوع الإنسانى أو كادت، وجعلت الأرض غير صالحة للسكنى، والهواء غير صالح للتنفس، والماء غير صالح للرى؟ على من تقع تبعة ذلك كله؟؟!

تقع على أصناف أربعة:

الصنف الأول: العلماء العباقرة الذين اكتشفوا القنابل الذرية والهيدروجينية، وهى أسلحة دمار وخراب، تخرب المدن العامرة، وتهلك الملايين من البشر والحيوان، وقد افتنوا فى تقويتها حتى وصلوا إلى قنبلة تعادل مائة مليون طن من المتفجرات، وهذه تقضى على مملكة بأسرها، وتتركها يبابا وأرضا خرابا، لا ساكن فيها ولا أنيس ولا زرع ولا شجر.

هؤلاء العلماء وجهوا عليهم إلى ما يضر الإنسان لا إلى ما ينفعه، وإلى ما يهلكه لا إلى ما يحييه، فى حين أن العلماء من

يوم خلقهم الله، وأنار بصائرهم بالعلم، يبتكرون ما يحيي وما يسعد، وما يسد الحاجة وما يرفه، وما يشفي من الأسقام والأوجاع، والسموم المهلكة، والجراثيم الضارة.

هذه خطيئة أولي الفكر، وهم الآن يندمون ولات ساعة مندم، على أن أوجدوا هذه القوة الهائلة المدمرة التي صار تصريفها بأيدي رجال الجيش والسياسة - والمرء قادر على نبله مادام في يده النبل، فإذا خرج من يده، لم يمكنه رده وسبق السيف العذل!

الصنف الثاني: رجال السياسة والحكم الذين ملكوا مصاير الأمور في أممهم، وهؤلاء هانت عليهم النفوس، فباعوا الحياة بما هو أقل من الحياة، وعلموا أن الأسلحة التي بأيديهم أخطر الأسلحة وأنها تبيد في ساعة واحدة الملايين وعشرات الملايين، ولم يكفوا عن إنتاجها والإكثار منها، ولم يتفقوا فيما بينهم على إزالة هذا الخطر الجاثم على صدر البشر، ورفع أذاه عن الوجود، وأخذوا يهددون بعضهم بعضا بقنابل قوتها خمسون مليون طن، ومائة مليون طن من المتفجرات - وقد قلنا إنهم يهددون أممهم أيضا حينما يهددون أعداءهم لأن أعداءهم يملكون ما يملكون، ولا يقفون مكتوفي الأيدي حتى يدمروا، بل سيقابلون الضرب بالضرب والرءوس النووية بالرءوس النووية، وعندها يكون الفناء والتدمير للمتحاربين.

وإنهم يهددون البشر الذين ليسوا أعداء ولم يكونوا من جناتها، ولا ناقة لهم في الأمر ولا جمل، يهددونهم بالفناء أيضاً بل يهددون الحضارة بالخراب والنوع الإنساني بالزوال!

إنه لا يوجد فيما مضى من العالم أشد ضررا بالإنسانية من حكام الدول الكبرى المتنازعة إذا لم يتفقوا على إبادة الأسلحة النووية وإذا لم يريحوا الإنسانية من هذا السيف المصلت على رأسها يهددها بالفناء.

والذى حجب عن عيون البشر هذه الحقيقة أنها جرم جديد لم يألفه الناس من قبل، فليس كالجرائم التى عرف الناس فظاعتها، ومضت علي ذلك العصور والأجيال، فإدراك جرم من تلبس بها أصبح سهلا أو ضروريا، هذا أولاً، وثانياً أن هؤلاء الحكام ينتجون الأسلحة النووية ويزيدون فى تحسينها وجعلها أكثر عدداً وأشد فتكاً، فهم فى صورة من يخدم أممهم، وما أضفاه الناس على خدام الأمم يضفى اليوم على هؤلاء، مع أن الفارق واضح، وهو أن ما ينتجونه اليوم عبث فى عبث، لأن ما أنتج كاف فى تدمير الخصمين المتحاربين إذا وقعت الحرب، والزيادة عليه لا يرفع التدمير عمن زاد فليست الزيادة فى إنتاج القنابل طريقا لإنجاء أممهم، إنما الطريق اتفاق الطرفين على نزع هذا السلاح وتخليص العالم منه.

أما المنتجون الأولون فكان السابقون من الأمريكيين ينتجون لإحراز النصر. وأما الروس الذين أنتجوا بعدهم فكانوا ينتجون

ليكون لهم سلاح مثل أو أمضى من سلاح الآخرين، لئلا يقعوا في قبضتهم. ولما أنتجوها حمدهم العالم لأنهم خلصوا العالم من أن يكون كله ضعيفاً إلا دولة واحدة قوية، فتستولى عليه، وتكون لها الغلبة وحدها على هذا العالم(١).

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم

***

إن المرء يحب أن يحبه مواطنوه ويقدروه، فإذا رأى هؤلاء الساسة أن مواطنيهم أبغضوهم، وأن العلة فى ذلك أنهم بصدد أن يهلكوهم ويهلكوا البشرية معهم، تركوا هذه السبيل التى يسلكونها وسلكوا سبيلا أخرى فيها حياة البشرية ونجاتها، فما أبرك هذا البغض، وإذن فلسنا مفسدين إذا دعونا إلى البغض وإنما نحن مصلحون كل الإصلاح ومفيدون كل الفائدة.

ما الذى يمنع الأمم من ذلك البغض؟

الذى يمنعها أنه أمر جديد لم يفكروا في عواقبه ولم يتعمقوا فى جرمه ولؤمه وحسبوه أنه استعداد للعدو والمغير، فكما يمدح ذلك ويعد فضيلة، يمدح إنتاج القنابل الذرية ويعد فضيلة.

***

(١) فليتأمل القارئ ما تنبأ به الكاتب أليس لأمريكا الغلبة على هذا العالم اليوم تفعل فيه ما تشاء؟!

والخطأ أن القياس مع الفارق، فالاستعداد الأول محتمل أن يؤدى إلى النجاة. أما هذا فهو مؤد حتما إلى الهلاك، هلاك الطائفتين المتقاتلتين ! حرب فيها هلاك محقق وفناء سريع فينبغى للأمم أن تفهم هذا وتقول لساستها لستم بما تفعلون من إنتاج القنابل الذرية والمغالاة فى كثرتها وقوتها تخدمون سلامنا بعد أن أنتجها الآخرون وإنما أنتم تعملون على فنائنا وفناء أعدائنا معنا.

والسبيل إلى خدمة سلامنا الذى يجب أن تعملوا لأجله هو الاتفاق مع خصومكم على إفناء هذه القنابل وإبادتها قبل أن تبيدنا جميعاً وتبيد البشر كلهم. هذه هى السبيل التى يجب أن تسيروا فيها وهذا هو الحقل الذى يجب أن تستنبتوه، وإنكم تبدءون من نقطة محققة وهى أن سبيل القنبلة الذرية سبيل الهلاك المحقق الذى لاشك فيه، والفناء السريع الذى لا فرار منه، والسبيل إلى إقناع ساستكم بذلك اقتناعكم أولاً به ثم العمل على مقتضى هذا الاقتناع من بغضهم والنظر إليهم كما تنظرون إلى جلاديكم.

أيها الشعراء أنظموا فى هؤلاء الساسة الذين يسيرون بأممهم فى سبيل الهلاك وهم يؤمنون أنهم يسيرون بأممهم فى سبيل الحياة يقتنعون بذلك ويقنعون أممهم به.

ياقوم ما رأيت حقاً لا شك فيه من هذه القضية والناس

يعملون على خلافها كأنها باطل لاشك فيه.

أهكذا قدرللبشرية أن تبيد وتهلك وأن يكون هلاكها على يديها فهي التى تتولى ذلك بنفسها وذلك كله لأنها اقتنعت بشبه زائف، وخيال باطل وخداع مكشوف مفضوح.

قولوا لساستكم لا تطمعوا أن تحلكم كما أحلت الأمم ساستها الذين ساروا بهم فى سبيل النصر وأن نحلكم المحل الأرفع فلستم تسيرون بنا إلا فى سبيل الخذلان والهلاك وأنتم تظنون أنكم تسيرون فى سبيل الشرف والحياة.

اكتبوا أيها الكتاب في هذه الخدعة وافضحوها واكشفوها للناس وابرزوها عارية مفضوحة، لا لباس عليها ولا حجاب يسترها. إن الناس قد جعل فى أعناقهم الأغلال فهم مقمحون، وضربت عليهم السدود من بين أيديهم ومن خلفهم فلا ينظرون ما وراءهم ولا ما أمامهم، وهذا العمى مؤد إلي الموت وعلى قدر خطره يجب أن تبذلوا الجهد لإزالة السدود والحواجز ليعتبروا بما وراءهم، وليبصروا ما أمامهم.

يفخر الرئيس خروشوف بقنبلته الذرية التى أنتجتها روسيا أخيرا والتى تبلغ قوتها خمسين مليون طن من المتفجرات، كأنما يقول للشعب الروسى لقد وجدتم الملاذ والملجأ والحصن الحصين والأمان، وكأنما يقول لأعدائه لقد أنتجت لكم الموت الشامل

والهلاك السريع.

وللشعب الروسى أن يقول له هذه لا تعصمنا من الهلاك فأقصى ما تفعل أنها تفتك بأكبر عدد من الغربيين ولكنها لا تمنع من أرسال قنابلهم إلينا من المواقع الحربية التى تحيط بروسيا ومن الغواصات الكامنة فى البحار ومن الطائرات المحلقة فى الأجواء فسنهلك كما هلك عدونا وما ينفعنا أن نهلك ويهلك عدونا إنما الذى ينفعنا حقاً ألا نغرق ونصل إلى ساحل السلامة والأمان.

ويدل الرئيس كنيدى بما أنتجه من القنابل الذرية كذلك وأنها بلغت من الكثرة والقوة ما يبيد روسيا ويصيبها بالخراب والدمار. وللشعب الأمريكى والبريطانى والأمم الغربية أن يقولوا لقادتهم مثل ما قال الشعب الروسى لقادته لاينفعنا أن تبيد روسيا ونبيد معها، إنما الذى ينفعنا ويثلج صدورنا أن ننجو ولو نجت روسيا وأن نصل إلى بر السلامة والأمان، بهذا وبهذا فقط يكون الفخر والإدلال.

والذى أريد أن أكرره وأؤكده وأقيم الأدلة عليه حتى يتضح ويثبت فى عقول الخاصة والعامة هو شئ واحد وهو أن رجال السياسة من الشرق والغرب الذين يعكفون على القنابل الذرية فيزيدونها قوة وكثرة ليسوا كساستهم السابقين الذين ابتدعوا القنابل الذرية وسلحوا أممهم بها فليس عملهم فى هذا الحقل

فضيلة كما كان عمل السالفين وليسوا يستحقون بهذا العمل الشرف كما كان يستحقه سلفهم ولايصيرون بذلك خداما لأممهم كما صار الأولون.

إنه إذا كان ابتكار الأولين للسلاح الذرى من الشرق والغرب فضيلة فإن إنتاج ساسة اليوم لهذا السلاح رذيلة أى رذيلة.

وإذا استحق الأولون أن تسجل أسماؤهم في لوحة الشرف، فإن الحاضرين لا يستحقون ان تسجل أسماؤهم فى هذه اللوحة، ومثل ذلك مثل قريتين تنازعتا فابتكرتا كلتاهما ما تسمم به شرب الأخرى وكان كافيا فى إماتة القريتين، ثم أخذتا بعد ذلك تزيدان المخزون من السموم قوة وكثرة. ليس ذلك بنافعهما فالمخزون منه كاف، إنما الذى ينفع ابتكار ترياق يبطل فعل السموم أو الصلح على إفناء المخزون منها لتنجو القريتان.

هما سبيلان: فمن سلك سبيل زيادة السموم قوة وكثرة، سلك سبيل إماتة قريته وقرية أعدائه، ومن سلك سبيل ابتكار الترياق أو إبادة المخزون منه سلك سبيل إنجاء قريته وإنجاء القرية الأخرى معها. وحقيق أن يرى الناس من سلك السبيل الأولى سالكا سبيل إهلاك قريته لا سبيل إنجائها ولا يستحق التقدير، إنما الذى يستحق التقدير هو من سلك السبيل الثانية.

***

إياكم وتلك السياسة الخرقاء، سياسة تقريب العالم من حافة الهاوية، فربما سبق السيف العذل ووقع العالم فيها. قال نبى الإسلام «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[1].

فإذا كان نبى الإسلام يريد من المسلم ألا يقرب من الحرام، لئلا يقع فيه، ويشبه ذلك بالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وذلك فى أمر جزئى كشرب خمر، أو اتصال فى غير حل، أو مقارفة ميسر، فماذا يكون فى إثم هو فوق كل إثم؟ وماذا يكون في شر ليس فى الدنيا شر يعدله؟ إثم الآثام، وشر الشرور، فناء مئات الملايين من البشر، أو فناء البشر كلهم! أليس ينبغى أن نحتاط ثم نحتاط ونتقى الشبهات، ولا نرعى حول الحمى لئلا نقع فيه والحمى هنا حمى الإنسانية لئلا تفنى، وحمى الحضارة لئلا تبيد.

كلما كان الخطر شديداً وجبت الشدة فى التحرز منه، وهذا أخطر الأخطار، فوجبت الشدة فى الاحتراز ولا تحرز أعظم من إفناء هذا السلام المبيد، وحرق مسوداته وطريقة إنتاجه وألا

(١) صحيح البخارى، كتاب البيوع، حديث رقم (١٩١٠)

يمكن هذا الإنسان الفاني من هذا السلاح، الذي يتحكم في مصير البشرية وبقاء النوع الإنساني أو فنائه.

الصنف الثالث من الذين تقع عليهم التبعة: رجال الحرب من الجنود والقواد الذين ينفذون أوامر رجال السياسة فيضغطون على زر أو أزرار، فتنطلق المردة من قماقمها، والروع من مكامنه.

الصنف الرابع: أمم هؤلاء الساسة والحكام من الشرق والغرب فقد ولوهم وعزلوا أنفسهم وتركوهم يتصرفون كما يشاءون. جعلوا مصايرهم بأيديهم وكانوا معهم كالميت بين يدي الغاسل يقلبه يمنة فينقلب ويقلبه يسرة فينقلب، لايخالفه ولا يتأبى عليه. ولو كان الأمرفي غير الحياة والموت والبقاء والفناء، لما عبناهم بذلك ولكن الأمر جد، وهو يعني الحياة أو الفناء.

لم لم يقولوا لساستهم: نحن وليناكم لتحققوا ما هو أقل من ذلك، حرية التجارة أو تقييدها، سعة الهجرة أو ضيقها، ونحن نحاسبكم إذا لم تحققوا ما وليناكم عليه، فكيف لا نحاسبكم إذا كنتم على وشك أن تضيعوا الغرض الأسمى والعمود الأعظم، وهو الحياة والحضارة، حياة الأمم، وحضارة الإنسانية؟! إنكم تهددون خصومكم بالحرب الذرية وفي هذا التهديد تهديد لنا لأنهم يملكون ما تملكون من رؤوس نووية

وسيجيبونكم بالمثل أو بما هو أشد وأقسى، فكيف نصبر على تهديد ساستنا إيانا بالفناء والخراب، وعلى تهديد أعدائنا إيانا بالفناء والخراب أيضاً ، إن الموت لاحق بنا إذا بدأنا، ولا حق بنا إذا لم نبدأ وبدأ أعداؤنا فالموت على كلتا الحالتين والخراب على كلا الاحتمالين!

ما الفرق بين ساستنا المدافعين عنا وبين أعدائنا المتربصين بنا، إذا كان هلاكنا على أيديهم هجوماً أو دفاعاً؟ يجب على المحكومين في الشرق والغرب أن يكون هدفهم الوحيد إبادة القنبلة الذرية والقضاء عليها قبل أن تبيدهم وتقضى عليهم، ويجب أن يقضوا على هذا البطء والتلكؤ فى تحريم التجارب النووية وفى نزع السلاح.

إنه يجب أن تعمل الأمم مع ساستها ما تعمله الأمم مع رجال الكنهوت المسيحى فقد كانوا إذا مات البابا وأرادوا انتخاب خلف له انتخب كل نفسه ولم يفز أحد بالأغلبية، وكان ذلك يطول ويقتضى إعادة القرعة مراراً وتكراراً، فاحتالوا لسرعة الانتخاب، فقضى بأن يحبسوا فى مكان الاقتراع ولا يسمح لهم بمغادرته حتى ينتخبوا البابا ويوقدوا ناراً علامة على أنه تم الاقتراع وأنهم لذلك يطلبون الخروج من محبسهم.

وقريب من هذا ما فعله عمر بن الخطاب الخليفة الثانى حين أدركته الوفاة، فقد جعل الأمر فى ستة يختارون من بينهم

الخليفة، فانقضت أيام ولم يتفقوا على واحد، فجاءهم حاجب عمر وقال: إن عمر أجل لي أجلا فإذا انتهى قبل الانتخاب أمرني أن أغلق الباب ولا أفتحه ولم يبق إلا يوم، فإذا انتهى أغلقت الباب. فلما رأوا أن الأمر جد احتالوا حتى تم الانتخاب.

فما أجدر أمم الشرق والغرب أن يفعلوا ذلك ويحبسوا ساستهم، ساسة الغرب وساسة الشرق حتى يتفقوا على إبادة القنابل الذرية وعدم إنتاجها، وتخليص العالم من هذا السلاح المبيد، وما لم يوقدوا النار دليلا على أنهم اتفقوا لا يسمح لهم بالخروج.

***

أيتها الرعايا المحكومون في جميع بقاع الأرض، قفوا صفاً واحداً أمام حكام الشيوعية والرأسمالية خاشعين ضارعين وأبسطوا أيديكم إليهم وقولوا لهم أسرفتم في إعداد القنابل الذرية والزيادة فيها عدداً وقوة وأسرفتم في القرب من حافة الهاوية حتى كدتم تتردون وتردون العالم فيها. حنانيكم! بعض هذا كفيل بالقضاء على البشر وفيهم آباؤكم وأمهاتكم وأخواتكم وأزواجكم وأبناؤكم وفيهم أطفال رضع، وشيوخ خضع وفيهم شباب في زهرة الشباب وميعة الصبا لم يتمتعوا بشبابهم، ولا قضوا حظهم من دنياهم وفيهم أممكم ورعاياكم وفيهم أنتم بأعيانكم وأشخاصكم وما عهدنا أحداً في الأرض

يسير فى طريق الهاوية بهذا الجحفل اللجب من هذا الجيل والأجيال القادمة، ويوشك أن يرديهم جميعاً ويتردى معهم. حنانيكم! استبقوا البشر أو بعضهم ولا تستأصلوهم فبعض الشر أهون من بعض.

أبقوا على هذا النوع الإنسانى الكريم ولا تستأصلوا شأفته وتعروا أديم الأرض منه وهو خير من فيها بهجة وجمالا وعقلا وتدبيراً. إنكم لم تخلقوا منه واحداً ولم تخلقوا منه رأساً ولا رجلا ولا وجهاً ولا سمعاً ولا بصراً ولا أذنا فلا حق لكم فى إبادته وأنتم بهذا العجز عن أن تخلقوا إنسانا واحداً سويا أو عضواً منه ولو اجتمعتم له.

إن الأمر فات مرتبة العفو والمكارمة والرحمة، وفات مرتبة العدل والمجازاة، فلسنا نطلب منكم الرحمة والفضل، ونقول ارحموا الضعفاء والعاجزين، ولا نطلب منكم العدل ونقول العدل يقضى بكذا. إن الأمر خرج عن هذه الأبواب كلها، وإنما نحن فى مرتبة الإبقاء على النفس، فنحن نقول لكم: أبقوا على أنفسكم، وأبقوا على الناس معكم، فليس فى المسألة فضيلة ولا عدالة، ولا إدلال بمكارم الأخلاق، وإنما هى خلاص أنفسكم وخلاص البشرية معكم.

هبوكم فى جزيرة ليس فيها قانون ولا أخلاق ولا فضائل، وقد قضى على أهل الجزيرة أن يتحاربوا حتى كادوا يفنى

بعضهم بعضا، فلسنا نقول لهم الرحمة ولا العدل، ولا حسن الخلق، وإنما نقول تهادنوا لتبقوا على أنفسكم، فإن شئتم البقاء فذاك وإلا فأنتم وما اخترتم لأنفسكم - لا - فأنتم لا تختارون لأنفسكم فقط، وإنما تختارون لأنفسكم وللناس جميعاً، لحاضر الإنسانية ومستقبلها، فلسنا نترككم تختارون، لا يترك若كم العالم تتصرفون في حياته وموته وهو كالشاة التي تقدم للذابح ولا تملك من أمرها شيئا.

إنه سيدافع عن نفسه، وسيحتال لخلاصه وإنه يخوض الموت ويركب حد السيف لهذا الخطب الأعم!

إن العالم إذا لم يعرف أن يخلص نفسه بكم أو منكم فليمت فإن من الخير له الفناء، وليذهب غير مأسوف عليه، فإنه لا يستحق البقاء ولا يبعد الله إلا من ظلم. وستبقى الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب شاهدة على حمق وعجز الإنسان.

العبرة من أزمة كوبا

كان الظن بالمعسكرين المتنازعين أنهما يهددان بالحرب الذرية ولا ينفذان ؛ لأننا كنا نحسن الظن بهما فكنا نرى أنهما أرحم بالإنسانية من أن يرسلا عليها العذاب ويصبا عليها الويل فتقتل الملايين من البشر ، وتمرض ملايين أخرى وتتعذب بالأمراض والأوجاع !

وكنا نرى أن النوع الإنسانى أعز عليهما من أن يستأصلاه فلا يبقى منه أحد : وأخيراً كنا نرى أنهما أعقل من أن يدمرا أنفسهما وقومهما والعالم معهما ، وأن غريزة حب البقاء سترغمهما على ألا ينتحرا .

ولكن الأزمة الكوبية أظهرت خطأ ما كنا نظنه ، فقد رأيناهما يغذان السير إلى الحرب ، بل إلى الموت بخطى مستعجلة لا تتوقف ، كأنهما يسيران إلى مأدبة أو ملهى .

لم تعطفهما الرحم ولم يرحما الإنسانية ولم يباليا بمن سيقتل ولو دخلوا فى مئات الملايين ولا بمن سيشوه ولا بمن سيمرض وتصيبه الأوجاع والأوصاب بالغين من الكثرة ما بلغوا .

ولم يعز عليهما ذلك النوع الإنسانى فلم يباليا بأن يستأصل

وتخلو وجه الأرض منه وينقرض كما انقرضت الحيوانات التى ظهرت على وجه الأرض ثم انقرضت.

ولم ترغمهما غريزة حب البقاء على البقاء وعلى ألا يقدما على الانتحار فوضعا حبل المشنقة في أعناقهما وأعناق العالم وانتظر العالم كما ينتظر المحكوم عليه بالموت فى غرفة الإعدام.

وبينما العالم يترقب النهاية إذ رفع خروشوف الغمة عن البشر بإجابة الولايات المتحدة إلى ما أرادت فابتعد شبح الفناء المخيف.

ولعل ذلك كان لأن روسيا أميل إلى السلم وأبعد عن الحرب وأن الولايات المتحدة بالعكس، أو لعله كان لأن الولايات المتحدة كانت فى موقف ليس لها فيه اختيار. لأنها رأت أن وضع القواعد الذرية فى كوبا التى بجانبها بمثابة وضع الحبل فى العنق وما لها أن تسكت حتى يتم وضع الحبل، أو لعله كان لأن روسيا رأت عدة لم تستكمل ورأت أن الحرب غداً خير منها اليوم.

أزمة كوبا بينت أن عقلية الناس لم تتغير وأن أحكامهم لم تتطور وأن ما كانوا يحكمون به قبل الذرة يحكمون به بعد الذرة، حكموا بأن من تراجع هو المنهزم، وأن من سار فى الطريق وركب رأسه هو المنتصر وأنه حافظ على عزته وعلى

كرامته وكرامة قومه ولم يخطر ببالهم أن المتراجع أنقذ العالم من الكارثة، وأن الذى سار فى الطريق إلى قرب النهاية كاد يودى بالعالم فالعالم لم يتطور فكره ولم يتغير حكمه.

لذلك لم يعرف لخروشوف هذه اليد وأنه أنقذه وأبعد عنه شبح الفناء، ومهما يكن من الأسباب والدواعى فيجب أن يعرف أنه أبعد عنه الموت ومتعه بالبقاء، لم يعرف العالم له هذه اليد فتركه يعانى ألم الانكسار ويعتذر عن موقفه بما أفادته الإنسانية وترك كندى فى نشوة الانتصار ولم يفهمه أن انتصاره خذلان وأن احتفاظه بعزته وعدم تراجعه خير منه ألا يحتفظ بذلك لأنه فى سبيل الإنسانية والخير العام، إننا كنا نطلب ذلك لا حباً لخروشوف وبغضا لكندى، لأنهما عندى سواء، وإنما نطلبه حباً للإنسانية لأن العالم لو فعل ذلك لشجع المتحاربين أن يرجعا عن الحرب إذا وقفا على حافتها، وأن العالم سيعرف لمن فعل هذه اليد.

هكذا ظهر العالم، شعوب لم تتطور، وهى ساهية لاهية، ليست هنا، كأن الأمر لا يعنيها، وحكام من غير طينة الناس لا يفكرون كما يفكرون، ولا يشفقون كما يشفقون، ولا يحذرون ما يحذرون.

نهاية المطاف

إن بعض من يقرءون كتابى هذا سيشعرون بخيبة أمل بعد قراءته، لأنهم كانوا يقدرون شيئاً يشبه المعجزة أو السحر ينقذ العالم قسرا من الحرب الذرية، ولكنهم رأوا مقدمات ونتائج وعللا وأسباباً، وإشارة إلى العلة وموضعها وإلى الدواء الذى يزيلها وهذا شىء موكول إلى رؤساء الدول أن يتعاطوه، وهيهات ذلك إنهم لا يتعاطونه إلا إذا اقتنعوا به وسمحت لهم أطماعهم بالتخلى عما نالوه، ووثق بعضهم ببعض ولم يروها خدعة الصبى عن اللبن وشمشون عن علة قوته.

وهذه عقاب عالية، وثنيات مرتفعة، لها مرتقى صعب، ومنحدر وعر، لا يجتازها إلا الصديقون.

ومن يرتاب فى ذلك فعليه أن يقدر نفسه واحداً من المتنازعين، فهل إذا قدر نفسه رئيس بريطانيا يقبل أن يتولى الحكم وهى تملك ربع العالم ويتركه وقد صفيت أملاكها.

يأبى عليه ذلك اعتياد أن يملك، وأن يحكم، وأن يتجر وأن يربح هذا الربح الواسع العريض.

ويأبى عليه ذلك أن تكون الدنيا طوع أمره يصرفها كما يشاء ولا يقضى أمر إلا وله فيه رأى، ثم يصبح صفراً من كل

ذلك.

ويأبى عليه تربيته الأسبرطية التى اعتادت المغامرة والنزال والمباهاة والتسلط.

ويأبى عليه آراء ورثها عن نيتشة وغير نيتشة تقدس القوة ولا شيء غير القوة.

ويأبى عليه بعد ذلك طمع اعتاد أن تلبى رغباته وأن تقضى حاجاته، وقد اعتاد أن يتطلع لما ليس فى ملكه، فكيف يسخو بما هو فى ملكه؟

فإذا عاند ذلك الذى قدر نفسه رئيس بريطانيا وقال إن نفسى تسخو بكل ذلك، فليعلم أنه صادق لأنه قدر نفسه رئيس بريطانيا تقديراً ولم ينتقل عن نفسه ولم تحل فيه مشاعر البريطانى والنسية العقلى والخلقى الذى هو فى الرجل البريطانى، كالخالى من الحب الذى يقدر نفسه أنه محب فهذا تقدير فقط. أما خصائص المحب ومشاعره فليس له منها قليل أو كثير، ولذلك يكون حكمه على المحب هو الحكم الذى اعتاده وليس هو حكم المحب على المحب.

قلنا إننا شخصنا المرض ووصفنا الدواء لمريض برحت به العلة وأشفى على الهلاك وإن لم يستعمله هلك فليس فى حال اختيار وإنما فى حال اضطرار وإلجاء، ومن كان كذلك فلابد أن

يتعاطى الدواء إذا اقتنع به ونحن قد صرفنا القول ليقتنع الناس وكشفنا عن مواضع كانت مجهولة وأمور ما كانت لتخطر لرجل العصر على بال لبعدها عن ذهنه وعن طبيعته وعن تفكيره، فهل كان يخطر ببال رجل العصر أن الظلم وحب المال هما الداء، وعلتا الشقاء.

هل كان يخطر ببال أحد أن المعبود الذى أجمع الكافة على عبادته هو الذى سيوبقهم ويهلكهم، وأن المال الذى هو سبب سعادتهم ورفاهيتهم هو اللص الذى سيختلس حياتهم وأرواحهم التى بين جنوبهم ليس بقليل ذلك.

وليس بقليل أن نبين أن الظلم والطمع هما الداءان المميتان، والعلتان القاتلتان.

وليس بقليل أن نبين النسيج العقلى للأمم الحديثة، وأنه نسية انعكست فيه المقاييس، فالرحمة خور فى الطبيعة، والعدل خدمة الأقوى، والحق هو القوة.

وليس بقليل أن نبين أن هذه الآراء السبعية المقدسة عند الأقوياء والتى كان يظن أن نيتشه ومكيافللى وأضرابهما اكتشفوها - كانت معروفة عند اليونان على أنها آراء سوفسطائية مطروحة، وأنهم أشبعوها نقداً وتفنيداً، وكانت معروفة عند فلاسفة المسلمين على أنها آراء أهل المدن الجاهلة،

وأنهم زيفوها كذلك .

وليس بقليل أن نستعرض تاريخ البشرية ، ونبين أن التعدى والطمع هما اللذان جرا الإنسانية إلى هذا المصير الموحش المظلم وليس بقليل أن نبين حقارة المال والدنيا وأنهما أحقر من أن يهلكا الناس فيهما أفراداً فكيف تهلك فيهما البشرية .

وليس بقليل أن نزيل الغشاوات التى على أعين الأمم والحكام فجعلتهم لا يدركون ما هم فيه من خطأ كاد يودى بالدنيا وما فيها .

وليس بقليل أن نكشف عن الأمم الغنية القوية التى كثرت أملاكها وعبيدها والتى كان يظن أنها أقل الأمم مصائب وأعظمها استمتاعاً بالحياة فإذا هى أكثر الأمم مصائب وأقلها استمتاعاً بالحياة فقد أصيبت وروعت فى مدى ثلاثين عاما بحربين مخربتين أزهقت من الأنفس ما يربو على عشرين مليونا وخربت من المصانع والقصور المشيدة ما أفنت أعمارها فى تشييده ، وقد لدغت من الحجر مرتين وهى توشك أن تلدغ منه مرة ثالثة ، وليس من يقول لها كفى عن الأسباب ، فإن الأسباب الواحدة تنتج نتيجة واحدة .

وليس بقليل أن نضع اليد على أكثر الأمم تعديا وأكثرها طمعاً فى جميع عصور التاريخ ونبين العلة وهى أنها مزيج

عقلي من التربية الأسبرطية والآراء السبعية التي ورثوها عن فلاسفتهم وأنه لا تغيير حتى يغير ذلك المزيج .

وليس بقليل أن نبين ضرر التقليد المميت الذى وقع فيه رؤساء الدول الشيوعية لكارل ماركس ووقع فيه رؤساء الدول الرأسمالية لنتشه وأمثال نتشه وأن نبين من كلامهما أنهما لو كانا حيين لقالا بخلاف ما قالا لأنهما كانا يطمعان فى حرب تكسبهما الجولة لا فى حرب فيها الفناء المبيد والخسران المؤكد .

وليس بقليل أن نكشف عن الطمع والتعدى فإذا هما كلبان جائعان يلغان فى دماء البشر فى جميع عصور التاريخ ويوشكان أن يقضيا على الفرائس فلا يوجد طامع ولا ما يطمع فيه ، ولا متعد ولا متعدى عليه .

ليس بقليل هذا وغيره فإن لم يدرك الكمال فهو تخطيط على أرض بكر سيفتتح الطريق لمن يجيء بعدى فيكمل الناقص ويصلح الخطأ .

لقد ألقيت إليكم شغلا طويلا ، فقد فاجأتكم بما تعرفون وما تنكرون .

وستفضى بكم المفاجأة إلى العجب .

وسيدعوكم العجب إلى الإنكار .

وسيحدث لكم الإنكار تفكيراً.

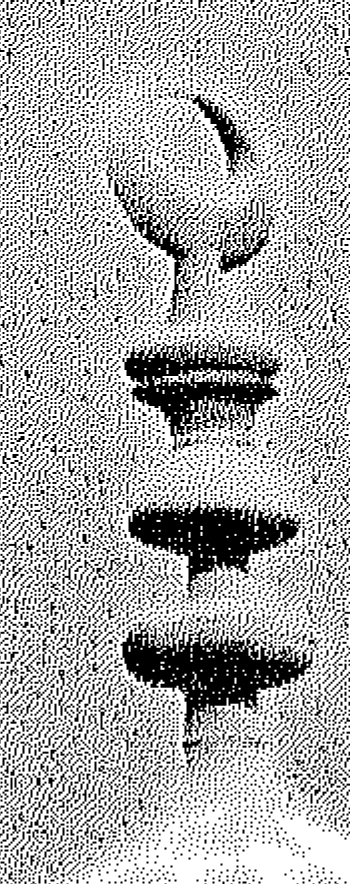
وسيؤدى بكم التفكير إلى الاقتناع.

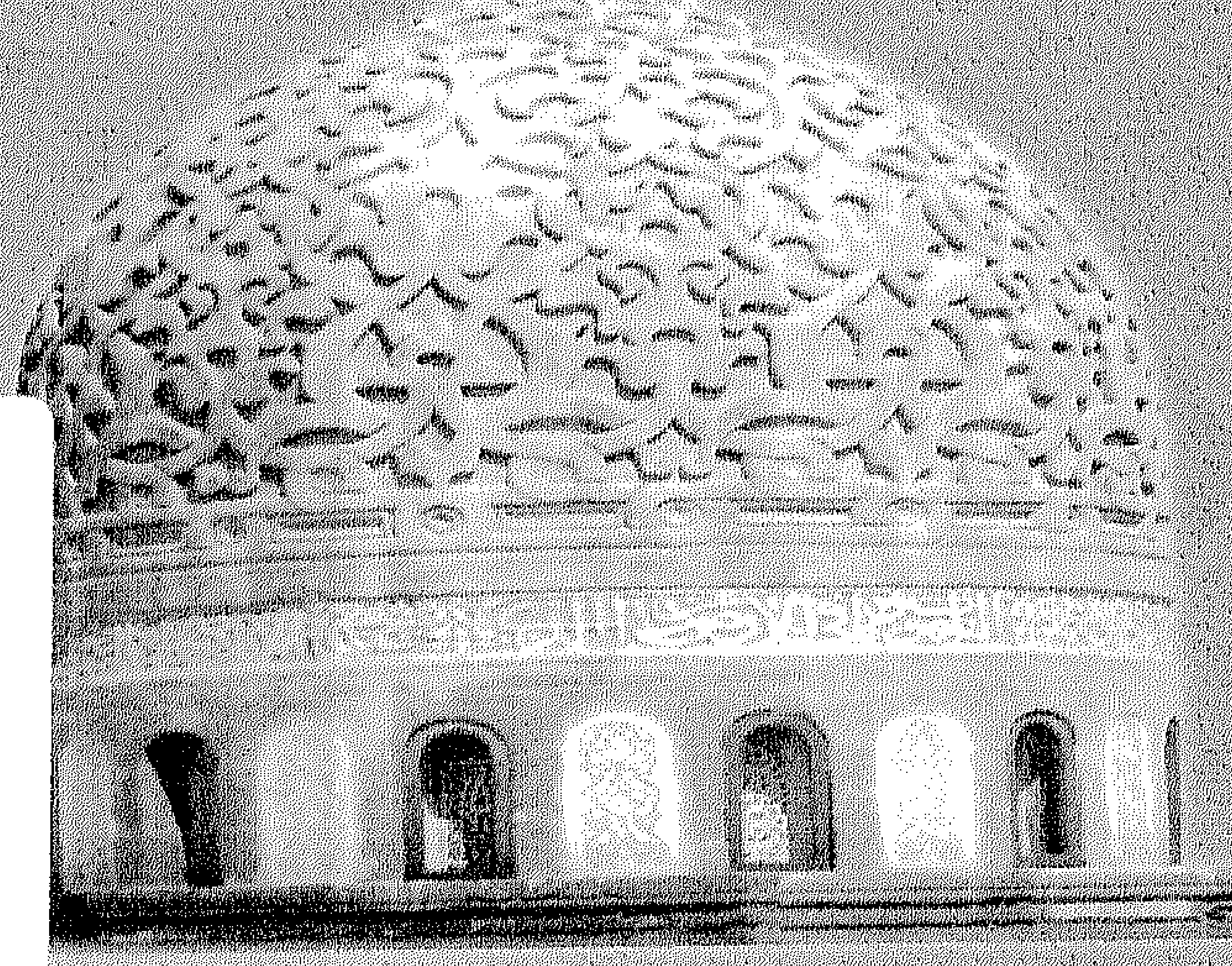
وسيؤدى بكم الاقتناع إلى التغيير، التغيير في كل شيء، فيما تحبون وما تكرهون، في المقاييس التى كنتم بها تقيسون، في علاقات بعضكم ببعض، في أخلاقكم، وفي هواكم، وفي أحكامكم.

وسيؤدى بكم التغيير إلى شاطيء السلام والأمان.

الفهـــرس







المتن ٧٠ جم مستورد
الغلاف ١٥٠ جم كوشيه

شركة الإعلانات الشرقية - دار الجمهورية للصحافة